تثبيت أئمة المؤمنين
بذكر
مبشرات النصر والتمكين

تقديم
الشيخ محمد صفوت نور الدين

تأليف
الدكتور سيد بن حسين العفاني

دار ماجد عسيري

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الأحباب الأبرار الأتقياء. نحسبهم كذلك والله حسيبهم. من رجال حلوان وعلى رأسهم:

♥ الشيخ الرباني الحبيب الغالي سيدنا الشيخ/ مصطفى محمد من ربى هؤلاء الربانيين.

♥ والشيخ/ خالد صقر الرجل في زمن عزّ فيه الرجال.

المؤلف

تقديم بقلم فضيلة الشيخ

محمد صفوت نور الدين

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلق اللَّه أجمعين محمد وآله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين.

وبعد..

فلقد جعل اللَّه سبحانه بعد كل عسر يسرًا، بل مع كل عسر يسرًا، بل هما يسران فقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وإن تاريخ الدنيا شاهد على ذلك، وأوضح ذلك في ما نعلمه من تاريخ الإسلام وسيرة خير الأنام، فكان في عداء أهل مكة له ظهور الحجة الدامغة التي لم يستطيعوا الرد عليها، ولو استقبل أهل مكة الإسلام بالترحيب لقال القائل: «إنهم قوم تعصبوا لرجل منهم فأيدوا مقالته كما حدث من بني حنيفة لما قالوا عن مسيلمة الكذاب: «كذاب بني حنيفة خير من صادق مضر» وخاضوا معه المعارك والحروب.

لكن عداء أهل مكة جعل بين المسلمين قبل الهجرة حبشي ورومي ودوسي وأشعري وغفاري وغير ذلك من قبائل العرب من غير قريش. ولما زاد عداء قريش؛ هاجر فكانت الهجرة فتحًا جديدًا للإسلام وتمكينًا للمسلمين، وحماية للقبلة الأولى الكعبة ـ بيت اللَّه الحرام ـ حماه اللَّه أن تنصب حوله الحروب وتسفك عنده الدماء كما وقع في أحد والأحزاب وحصار بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وغيرها من

الغارات التي تمت على المدينة؛ لذا اعتذر النبي ﷺ عن دخوله مكة بالسلاح فاتحًا بقوله: «**إن اللَّه أحلها لي ساعة من نهار وقد عادت اليوم كحرمتها بالأمس**». فكان عداء قريش تمكينًا للحجة، وكانت الهجرة تمكينًا للإسلام في وطن وجند ورجال ولو رحنا نستعرض ما كان في جميع أحوال النبي ﷺ وغزواته لعلمنا أن اللَّه عز وجل جعلها تمكينًا للإسلام في الأرض وتثبيتًا له في القلوب واللَّه متم نوره ولو كره الكافرون.

وإن ذلك الأمر لتستمر حلقاته فيما يحدث من أحداث نظنها مؤلمة يجعل اللَّه فيها مع كل عسر يسرين، وإنه من التحدث بنعم اللَّه رب العالمين أن نقول: إن نشأة جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر حاملة دعوة التوحيد منذ ثلاثة أرباع القرن في وقت صارت فيه البدع سننًا والمعاصي طاعات والشرك قربات وظن الناس في الدجالين علماء ناصحين؛ فأقيمت الموالد وبنيت القبور على المساجد وجعلت لها المحافل ودعوا غير اللَّه عندها وذبحوا لها القرابين وعادت الجاهلية الأولى باسم الإسلام، وانتشر الشرك تحت شعار التوحيد.

وفي ذلك الوقت كان هناك شاب يقوم بدعوة الإسلام في مسجد بالقاهرة في حي عابدين يجاور القصر الملكي، فذهبت وشاية للقصر في حقه فأثمرت الوشاية فصله من مسجده. وكم من إمام صاحب دعوة كان أبين منه، وأكثر لفيفًا. لكن جعل اللَّه في فصله من مسجده وبعده عن دعوته أن تجمع بعض تلامذته حوله، وأنشئوا جماعة للدعوة يكون العمل فيها جماعيًا لا يزول بزواله ولا يتغير بتغيره، ثم كانت من بعد ذلك الأحداث المؤلمة الكثيرة التي جعلت دعوة التوحيد اليوم ليست قاصرة بفضل اللَّه على مؤسسات أنصار السنة بل لها انتشار واسع،

وقبول حسن والحمد للّه رب العالمين.

ومن الحوادث المؤلمة التي شاهدها المعاصرون ما كان من حرب الخليج وسيئاتها واضحة لكل العيان، لكن ينبغي أن نعلم أن المولى سبحانه جعل لها ثمار خيرٍ، نذكر منها:

أن الغرب يربون أجيالهم على أن بلاد المسلمين قوم متوحشون يأكلون لحوم البشر ويقطعون الأيدي ويجلدون الأبدان في الشوارع ويرجمون بالحجارة، وهم قوم لا يستحقون الحياة. فلما قامت حرب الخليج، وإن كانت بتدبير منهم لكن كل ذلك لا يخرج عن قدر اللّه سبحانه. جمع الغرب الصليبي الحاقد جنده ليدافع عن منابع البترول ويغتنمها فرصة لتكون له في تلك البلاد قدم. ولكن كيف يخرجون جندهم، وقد علموهم أن هؤلاء لا يستحقون الحياة؟! فاضطروا أن يقولوا لهم: إن في الإسلام معتدلين يستحقون أن نسفك دماءنا للدفاع عنهم.

إذا بهؤلاء المعتدلين هم الذين حول الكعبة حيث مهبط الوحي فبدأ الكثير منهم يفكر وينظر. هل في الإسلام اعتدال فتتجه أنظار الكثيرين منهم نحو تلك البلاد فيعودون لدراسة ما عندهم فينشط دعاة الإسلام في بلادهم فيجدون آذانًا مفتوحة وعقولاً صاغية فيفتح اللّه سبحانه وتعالى قلوب من أحب منهم لذلك الدين.

ولو صرنا نتتبع كل دقيقة من ذلك لاحتاج الأمر إلى مجلدات طوال. ولكن هذه كلمات أقدم بها لذلك الكتاب الموسوعي المبارك لأخينا الحبيب صاحب القلم السيال/ الدكتور سيد حسين العفاني في كتابه الجديد «تثبيت أفئدة المؤمنين بذكر مبشرات النصر والتمكين»، وهو كتاب في موضوع ما

أحوجنا إليه لنعرف أن اللَّه سبحانه ينصر جنده بما يشاء، ولكن علينا أن نستمسك بالدين الذي أرسله، ونعمل به فنكون عند أوامره كلها من قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾، وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ..﴾ فكلها أوامر من رب كريم ينصر من يشاء، يثبت أفئدة المؤمنين وينزل الرعب في قلوب الكافرين، واللَّه متم نوره ولو كره الكافرون.

واللَّه نسأل أن يتقبلنا في عباده الصالحين وأن يستعملنا في طاعته، وأن يقبضنا إليه غير مفتونين، وأن يمكن للإسلام وجنده، وأن يرد العصاة منا إلى الطاعة، وأن يرفع بنا كلمة التوحيد حتى ترفرف على ربوع الأرض، وأن يختم بالصالحات أعمالنا، وأن يجمعنا في الجنة مع الأنبياء والمرسلين والشهداء والصالحين، إنه على كل شيء قدير. والحمد للَّه رب العالمين.

* * *

وكتبه

محمد صفوت نور الدين

تقديم

✍ «اللَّهم إليك تقصد رغبتي، وإليك أسأل حاجتي، ومنك أرجو نجاح طِلْبتي، وبيدك مفاتيح مسألتي، لا أسأل الخير إلا منك، ولا أرجوه من غيرك، ولا أيْأس من رَوْحك بعد معرفتي بفضلك»[1].

✍ أسألك باسمك الأعظم الذي إذا دُعيت به أجبت.

✍ اللَّهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم.. اللَّهم صلِّ على عبدك ونبيك محمد وآله.

✍ أسألك لهذه الرسالة أن تروي قلوبًا قد يعتريها الجفاف، فتنتعش بعد ظمأ، وتسقي ساحات العمل الإسلامي المبارك.

✍ أسألك أن تتفجّر رقراقة غير ملوثة بفكر أرضي أو حثالة بدعية.

✍ أسألك أن تكون عصارة قلب تسيل من قلمه الدمعات، لتبتسم على الورق الكلمات، لتمنح عيون الأعيان من دعاة الإسلام ـ وهم مظنة الفضل والعقل ـ دندنة وتحليقًا نحو المعالي رافعين راية الأمل لفجرنا المنشود.

وما أجمل أن تكون الكلمات عصارة قلب، فكل إنتاج لم تذب فيه حشاشة النفس، وكل قصيدة لم يدم لها القلب ضرب من العبث.

---

(١) من دعاء ذي النون المصري ـ انظر « حلية الأولياء» (٩/ ٣٣٣).

✍ أكتب هـذه الرسالة ليكـون تسكينـها للقلـب أعظم، وتسليـتها للحزيـن اليائس أبلغ، ولـتكون انتشالاً مـن وهدة، وتوجيهًا فـي ساعة حيرة، وأذانًا فـي نيام، وسلوة بين أحزان، ونـبلاً عندما يسـفل الواقع، وسمـوًّا إذا نطق الإغراء، ووفاءً في ساعة النكوص، واقتحامًا في مواطن الانخزال، ودفعًا للانزواء الـذي كلكل على اليائسين القانـطين، وترطيبًا للنفوس بـعد اليبوسة والجفاف، وتثـبيتًا لأفئدة المؤمنين، وبـعثًا للأمل، وترجمـانًا لأشواق الصـحوة التي تـسري في ضمـير الأمة، كمـا تسري جداول المياه العذبة في الرمال العطشى.

✍ نُنَقِّبُ في الماضي نستخرج السوابـق، وتسطر دمعات القلم العِبَر من نبع الكـتاب والسنة الصافي لتـجفّ دمعات قلوب التائهـين البائسين اليائسين القانطين، ويكون ثَمَّ ابتسام وأمل في فجرنا الآتي المضمّخ بطيب القرآن غيث قلوبنا ﴿ **فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ** ﴾ [الرعد: ١٧].

يقولون إن المطرْ
يترجمُ أشواقه أنهُرا
يغوص ببطن التراب
ليسكن قلب الثرى
ويخرج ينبوع ماء نمير
يفيض نماء
يفيض عطاءً
يعطر هام الروابي

ويبهجها منظرا منظرا
لقد جعل اللَّه هذا المطر
حياة لكل النفوس
مشاعًا لكل البشر
غديرًا. . . لتشرب منه الزهور
لتنقر منه الطيور
لتعكس فيه الضياء البدورُ
ليملأ تلك الجداول والأنهرا
فيا مطرًا غاب عن أرضنا أدهرَا
تحنّ إليك النفوس
ويشتاق كل الورى
تعالَ إلينا
تحنّ إليك ضروع اليباس
تحن إليك البذور بكل التراب
وكل ربوع اليباب
لتنقذها من جيوش التراب
وتغسل بالحب وجه الثرى

* * *

✍ أكتب هذه الرسالة ليعقل ساذج، ويتململ راقد، ويتنافس قاعدٍ، ويتأنى متهور، ويفرح هامد يائس بائس، لتغمر القلب برودة السكينة بوعد الله، بعد حرارة القلق، ولذعات الحيرة، ومرارة اليأس

والقنوط، وتنفرج أسارير الوجه عن ابتسام وضّاء، بعد عبوس أو ذهول.

✍ إن ابتسامة من يبتسم من الناس، وبثّ الأمل لن يأتي سهلاً أبدًا في هامد قانط، والذين ما زالت أفواههم تفغر حيرة ليسوا بقادرين على تصور ابتسامة تبتسمها الصفحات، ولا على فهم دور الأقلام المؤمنة ودموعها الباسمة في وجه قلم أسود مأجور غريق، تائه لا يبدو له طريق.

فدع عنك الكتابة لست منها ... ولو لطّخت وجهك بالمداد

اللَّهم اجعل لنا نصيبًا وافرًا في جهاد المنافقين المارقين والغلظة عليهم بهذا الأمل الذي نبثه في بني الإسلام لفجرهم المرتقب بذكر مبشراته وإرهاصاته، وتشبيت أفئدة المؤمنين بتجلية حقيقة هذا الدين العظيم وشرف الانتساب إليه، وقَدْر هذه الأمة العظيمة واصطفاء اللَّه لها وكرامتها عليه.

بنو الإنسان ينتظرون فجرًا ... بليل الوهم يخترق الضبابا
وقد لاحت أشعته وضاءً ... وإرهاصاته انطلقت شهابا
غدًا تمشي الشعوب على هداه ... ونور اللَّه يحدوها ركابا

✍ أما الشانئ الأبتر الذي يظن أن الإسلام لن تعلو له راية ولن تشرق له شمس مرة أخرى ولن يكون له فجر فنقول له: «اخسأ فلن تعدو قدرك».

✍ نقول له:

سنمضي والنجوم لنا دليل ... متى أصغى السحاب إلى النّباح
فقد ولّى زمانك يا أُبيّ ... كما ولّى زمانك يا سجاح

✍ ونقول له:

لا تهيئ كفني يا عاذلي فأنا لي مع الفجر مواثيقٌ وعهدُ

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد للَّه رب العالمين..

✍ وكتبه

الفقير إلى رحمة ربه... الآمل

في روْح اللَّه ووعده لأمته

سيد بن حسين العفاني

* أخي: يا ابن الإسلام:

● لا شيء في هذه الحياة يعدل ذلك الفرح الروحي الشفيف عندما نستطيع أن ندخل الثقة ونبث الأمل في نفوس المسلمين. وقد قال رسول الله ﷺ: « **أحب الناس إلى اللَّه أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى اللَّه عز وجل سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كُرْبة...**»[1].

✍ من يقيننا بوعد اللَّه ينبثق الفجر ويندلح، نعيش لنرقب هذا الفجر الوضيء، والأفق العالي والمثال السامي.

إن الذي يعيش لنفسه يعيش صغيراً ويموت صغيراً، والذي يعيش يرقب ببصر فؤاده ذلك النور فإنه يعيش كبيراً.

✍ عندما نعيش مع هذا الفجر، ولهذا الفجر، ولمجد بني الإسلام، فإننا نعيش حياة مضاعفة بقدر ما يتضاعف إحساسنا بالمسلمين.

✍ عندما نعيش للإسلام فإن حياتنا تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت البشرية وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض.

* * *

(١) حسن: رواه ابن أبي الدنيا في «قضاء الحوائج»، والطبراني في «المعجم الكبير» عن ابن عمر، وحسّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٩٠٦)، و«صحيح الجامع» رقم (١٧٤).

تثبيت أفئدة المؤمنين
بذكر مبشرات النصر والتمكين

«أخذنا فألك من فيك»[١] .

● عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن النبي ﷺ : «كان يعجبه الفأل الحسن، ويكره الطيرة[٢] . و«كان ﷺ يتفاءل ولا يتطير، وكان يحب الاسم الحسن»[٣] .

فالفأل فيه تقوية للعزم، وباعث على الجدّ، ومعونة على الظَّفر، وهذا رزق حسن يُرزقه العبد، «**وخير الفأل: الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**»[٣] .

وهذه القرائن لغة قائمة بذاتها لا يفهمها إلا أهلها الذين يرزقهم اللَّه إياها، وقاموسها ضخم، ونَحْوُها فيه رفع ونصب، وليس فيه خفض وكسر، والمبتلى بالموازين المادية هو عن هذا الذوق بمعزل. والحمد للَّه أن هذا الذوق ذوق سُني .

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود عن أبي هريرة، وابن السني، وأبو نعيم معًا في «الطب» عن كثير ابن عبداللَّه عن أبيه عن جده، والديلمي في «مسند الفردوس» عن ابن عمر، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٢٥)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٢٣).

(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، والحاكم في «المستدرك»، وصححه عن عائشة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٨٦١).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» عن ابن عباس، وكذا رواه الطيالسي، وأبو الشيخ، والبغوي، والضياء في «المختارة»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧٧٨)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٧٨٠).

● وعن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم ـ كأنا في دار عقبة بن رافع، فأُتينا برطب من رطب ابن طاب[١]، فأوّلتُ: الرفعة لنا في الدنيا، والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»[٢].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «إن من الناس ناسًا مفاتيح للخير، مغاليق للشر، وإن من الناس ناسًا مفاتيح للشر، مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل اللَّه مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل اللَّه مفاتيح الشر على يديه»[٣].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «عند اللَّه خزائن الخير والشر مفاتيحها الرجال، فطوبى لمن جعله اللَّه مفتاحًا للخير، مغلاقًا للشر، وويل لمن جعله اللَّه مفتاحًا للشر مغلاقًا للخير»[٤].

* بشروا:

* وقد قال اللَّه عز وجل لنبيه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

---

(١) نوع من الرطب معروف يُقال له: رطب ابن طاب، وتمر ابن طاب، وابن طاب رجل من أهل المدينة.

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٠).

(٣) حسن: رواه ابن ماجه عن أنس، وحسّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٣٣٢)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٢١٩).

(٤) حسن: رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، والضياء في «المختارة» عن سهل بن سعد، وكذا أخرجه ابن ماجه، وأبو يعلى في «مسنده»، وابن أبي عاصم، والخرائطي، والطيالسي، والمروزي عن أنس، وحسنه الألباني في «تخريج السنة» رقم (٢٩٦، ٢١٩)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٩٨٧).

* وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «**يسروا ولا تعسّروا، وبشروا ولا تنفروا**»(١).

● وعن أبيّ بن كعب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بشِّر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا؛ لم يكن له في الآخرة من نصيب**»(٢).

وعند البيهقي: «**بشِّر هذه الأمة بالتيسير والسناء والرفعة بالدين والتمكين في البلاد والنصر، فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا، فليس له في الآخرة من نصيب**».

● وعن أبي عنبة الخولاني قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا يزال اللَّه يغرس في هذا الدين غرسًا، يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم القيامة**»(٣).

هذا غرس اللَّه، ومن أحسن من اللَّه صبغة، ويأبى الغرس إلا طبيعته، والحمقى هم الذين يريدون أن يخرج هذا الغرس نكدًا، وكأنهم يقولون لشجر التفاح: لا تخرج إلا حنظلا.

---

(١) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم عن أنس.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد (٥/ ١٣٤)، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم (٤/ ٣١١)، وصححه ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٥ - ١٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٨٢٢)، و«أحكام الجنائز» ص(٥٢).

(٣) **حسن**: أخرجه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه، والبخاري في «التاريخ»، وحسّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٤٢)، و«صحيح الجامع» (٧٥٦٩).

فهذا الغرس ليس له نظيرُ وحاشا أن يكون له نظيرُ؟
بماءِ الذكر يُسقى كل يوم وفي أحضانه تنمو البذور[١]

* * *

* أمل وضيء ومبشرات للغد الآتي:

نعم لأمل بسَّام نعيش به، ولا للمنى فهي رؤوس أموال المفاليس والنَّوكى[٢].

أمل وضيء في وسط ظلام واقعنا الحالك، يطمئن في وسط الزلازل، وثقة لا تتزعزع في وعد اللَّه.. نستشرف النصر من بعيد، ونراه رأي العين، ونوقن أن البشرية في طريقها إلى ربيعها المونق المزهر الذي يملأ حياتها بالعطر والدفء والنور.. ربيع الإسلام.

«ونكتفي في هذا الموضع بعرض عبرة من الواقع التاريخي للإسلام، لعلّها أنسب العبر في هذا المقام: بينما كان «سراقة بن مالك» يطارد رسول اللَّه ﷺ وصاحبه أبا بكر ـ رضي اللَّه عنه ـ وهما مهاجران خفية عن أعين قريش.. وبينما كان سراقة يعثر به فرسه كلّما همّ أن يتابع الرسول وصاحبه، طمعًا في جائزة قريش المغرية التي رصدتها لمن يأتيها بمحمد وصاحبه أو بخبر عنهما... وبينما هو يهمّ بالرجوع ـ وقد عاهد النبي ﷺ أن يكفيهما من وراءه..

في هذه اللحظة قال النبي ﷺ: «**يا سراقة، كيف بك وسواري**

(١) من قصيدة «نحن وهم» من ديوان «لأنك مسلم» لمحمود مفلح ص(٦١).
(٢) النوكى: الحمقى.

كسرى؟». يعده سواري كسرى شاهنشاه الفرس! (ملك الملوك!).

واللَّه وحده يعلم ما هي الخواطر التي دارت في رأس سراقة؛ حول هذا العرض العجيب، من ذلك المطارد الوحيد... إلاّ من صاحبه الذي لا يغني شيئًا عنه[1]، والمهاجر ـ سرًّا ـ معه!

ولكن الرسول ﷺ كان عارفًا بالحق الذي معه، معرفته بالباطل الذي عليه الجاهلية في الأرض كلها يوم ذاك... وكان واثقًا من أن هذا الحق لا بد أن ينتصر على هذا الباطل، وأنه لا يمكن أن يوجد «الحق» في صورته هذه، وأن يُوجد «الباطل» في صورته هذه، ثم لا يكون ما يكون.

كانت الشجرة القديمة قد تآكلت جذورها كلها، بحيث لا يصلها ريّ ولا سماد... كانت قد خبثت بحيث يتحتم أن تجتث... وكانت البذرة الطيبة في يده هي المعبّأة للغرس والنماء... وكان واثقًا من هذا كله ثقة اليقين»[2].

* وفي يوم الأحزاب، ويا له من يوم!! يقول اللَّه تعالى عنه: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ [الأحزاب: ١٠ - ١١] في هذه الساعات الرهيبة والرسول مع الصحابة يسهم في حفر الخندق، وبهم من الخوف والجوع ما اللَّه به عليم، كان النبي ﷺ يستشرف النصر من بعيد، ويراه رأي العين في

(١) لا يغني عنه شيئًا أي: من حيث القوة المادية.

(٢) «المستقبل لهذا الدين» لسيد قطب (٩٣ ـ ٩٥).

ومضات الصخور على ضرب المعاول يحدّث النبي أصحابه عن الغد المأمول، والمستقبل المرجو بفتح بلاد كسرى، وبلاد قيصر، وبلاد اليمن حديث الواثق المطمئن الذي أثار أرباب النفاق عند الزلزلة، فقال أحدهم وهو معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف في ضيق وحنق ـ مصورًا حالة المنافقين جميعًا ـ: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!».

«نحن اليوم في مثل هذا الموقف بكل ملابساته، وكل سماته، مع الجاهلية كلها من حولنا، فلا يجوز ـ من ثم ـ أن ينقصنا اليقين في العاقبة المحتومة.. العاقبة التي يشير إليها كل شيء من حولنا؛ على الرغم من جميع المظاهر الخادعة التي تحيط بنا.

إن حاجة البشرية اليوم إلى هذا المنهج، ليست بأقل من حاجتها يومذاك.. وإن وزن هذا المنهج اليوم ـ بالقياس إلى كل ما لدى البشرية ـ من مناهج لا يقل عنه يومذاك ومن ثم ينبغي ألا يخالجنا الشك في أن ما وقع مرة في مثل هذه الظروف لا بد أن يقع»[1].

الإرهاصات في أن المستقبل للإسلام كثيرة، والمبشرات لفجر الإسلام ونصره نوقن بها أكثرمن يقيننا بوجودنا.

* * *

(١) «المستقبل لهذا الدين» لسيد قطب (٩٣ ـ ٩٥).

* لا تيأسوا من رَوْح الله:

* قال تعالى: ﴿ لا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

المؤمن أوسع الناس أملاً، وأكثرهم تفاؤلاً واستبشارًا، وأبعدهم عن التشاؤم والقنوط والضجر، كيف لا وهو مع اللَّه ذو القوة التي لا تحدّ، والرحمة الواسعة، والكرم السابغ.

سنستصحب الأمل فيهون الصعب، ويدنو البعيد، هذا الشعاع الذي يبزغ في دياجير الأحداث من القلوب الكبيرة المطمئنة، فينير الطريق، ويبدّد الظلام.. الأمل والإيمان بنصر اللَّه ﴿ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥ ـ ٦].

نستمسك بوعد اللَّه لننهض من الكبوة، ونسترد الثقة والطمأنينة.

* قال تعالى: ﴿ ...وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

* وقال تعالى: ﴿ لا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

نعرض مذاقًا يعرفه من ذاق مثله، والقلب الذي ذاق هذا المذاق لا تبلغ الشدائد منه مهما بلغت؛ لأنه قلب موصول باللَّه.. يحيا في ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من رَوْح اللَّه النديّ.

والمؤمنون الموصولة قلوبهم باللَّه، النديّة أرواحهم بروْحه، الشاعرون بنفحاته المُحيية الرخيّة، فإنهم لا ييأسون من روْح اللَّه ولو

أحاط بهم الكرب، واشتد بهم الضيق... إنه في رَوْح من ظلال إيمانهم، وفي أنس من صلتهم بربهم، وفي طمأنينة من ثقتهم بمولاهم، وهم في مضايق الشدة ومخانق الكروب.

❑ قال أبو حاتم السجستاني:

إذا اشتملت على اليأس القلوب ... وضاق لما به الصدر الرّحيبُ
وأوطأت المكاره واطمأنّتْ ... وأرست في أماكنها الخطوبُ
ولم تَرَ لانكشاف الضرّ وجها ... ولا أغنى بحيلته الأريبُ
أتاك على قنوطٍ منك غَوْثٌ ... يمنّ به اللطيف المستجيبُ
وكُلُّ الحادثات إذا تناهَتْ ... فموصولٌ بها الفَرَج القريب[1]

● عن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ أنه قال: «إن رجلاً قال: يا رسول اللَّه، ما الكبائر؟ قال: **«الشرك باللَّه، والإياس من رَوْحِ اللَّه، والقنوط من رحمة اللَّه»**[2].

❑ وقال ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ: الكبائر الإشراك باللَّه، والأمن من مكر اللَّه، والقنوط من رحمة اللَّه واليأس من رَوْح اللَّه»[3].

* * *

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٥٢٦).

(٢) حسن: قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رواه البزار، والطبراني، ورجاله موثقون، وحسّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٠٥١)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٦٠٣).

(٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٤): إسناده حسن.

* يا فجرُ أقبلْ:

يا فَجْرُ أقبِلْ.. مُدَّ مِنْ ... فيءٍ وهات مِن الظلالِ
واسكبْ على فمي البَلا ... لَ ورَشْفةَ الماء الزُّلالِ
وَاسْقِ البوادِيَ مِنْ ندَا ... كَ وَمِنْ مَواطِرِكَ الثِّقال
واطْوِ السّراب عن الجنا ... ن.. عن الحقول.. عن الرمال
واملأ بنورك كُلّ دا ... جيةٍ مُرَوِّعَةِ الخيالِ
يا فجر..! قد شقّ الهجيـ ... ـرُ وزادَ من شكوى الرِّحال

* * *

مبشرات النصر والتمكين من القرآن الكريم

مبشرات النصر والتمكين
من القرآن الكريم

لا يخالجنا الشك في نصر الإسلام...

✍ نحن نستيقن أن الناس كل الناس عائدون إلى الله حتمًا، عائدون إلى منهجه، وأن المستقبل لهذا الدين مهما بذل أعداء الحياة لزحزحة الإسلام عن القيادة..

هذا اليقين الذي لا يخالجه الشك نبعه من القرآن والسنة والتاريخ والواقع والسنن الكونية الربانية، وتحتمه طبائع الأشياء، وحقائق الوجود والحياة، ودلالات الواقع البشري من هنا ومن هناك... إن رصيد الفطرة معنا... فطرة الكون وفطرة الحياة... وهو رصيد هائل ضخم.

✍ إن الإسلام أضخم حقيقة، وأصلب عودًا، وأعمق جذورًا من أن يجتثه أعداء الحياة من على الأرض... بل هم الذين يتردون في هاوية الدمار السحيقة ومزابل التاريخ.

* والمبشرات بقدوم الفجر المؤمن ونصر الإسلام كثيرة:

١ ـ مبشرات من القرآن الكريم.
٢ ـ مبشرات من السنة المطهرة.
٣ ـ مبشرات من التاريخ.
٤ ـ مبشرات من السنن الكونية الربانية.
٥ ـ مبشرات من الواقع.

فلنقف وقفة مع هذه المبشرات.

* في سبيل الله أمضي:

. . وعلى هدي كتاب اللّه قد أحكمت نبضي
أرتدي الفجر وأمضي في سبيلي
. . فإذا الشمس دليلي
. . وإذا الأنجم في قلبي . . وأعراس النخيل

* * *

خارجًا من محنة الليل
. . ومن صمت القبورِ

* * *

نهشت أظفارهم وجهي
. . وفي جنبيّ عضّات الحصير
ممسكًا حفنة قمح . . رغم عصف الريح . . والأنواء . . والجُرح الخطير

* * *

وسطورًا من رحيق الذكر
. . أتلوها . . فيستيقظ سيف الحق
. . أتلوها . . فيصحو الشرق . .
. . أتلوها فتجري للينابيع طيوري
. . وعلى هَدْي كتابي
أُبصر الأشياء من خلف الضباب
وأرى الأوجه من غير قناعات . . ومن غير خضابِ

وعلى هدْي كتابي
أزرع النخلة في القلب وأسقيها شبابي

* * *

أبصر النحلة . . تجتاز المسافات لتمتص رحيق الشمس من ثدي الرّوابي
أسمع الترنيمة الأولى لطير الفجر
والترجيعة الأولى لديك الفجر
بوح الغيث[١] للأرض اليباب[٢]

* * *

وعلى هَدْي كتابي
. . أكتب الفصل الذي يأتي
. . وأخطو فوق حدّ السيف أستنطق عُرْي[٣] البرق
. . كي أنقذ آلاف الرقابِ

* * *

قد تقولون بأن السيف في كفّي أقالته المعارك
. . وبأن الليل هالك
وبأني لم أعد أُتقن شد القوس وتغريد النبالْ
والفتوحات التي أدمنها العُشّاق في السبعِ الطوالْ

---

(١) ظهور المطر.
(٢) الخراب.
(٣) يُقال: فرس عري: لا سرج له.

قد تقولون
. . وإفكًا ما يقولُ الزيف . . ضرب من خيالْ
قد تقولون مُحالْ
. . أن يجيء السيل دفّاقًا
. . . وأن تجري مع السيل التلالْ
قد تقولون
. . ولكني أقول
. . وأنا جد خجول
وأنا أقرأ فاتحة العصر . . وأشواق الحقول
إن في الدرب الخيولْ
. . على وقع التلاوات ستخضرّ الفصول
ولنا الفجر الجميل
ولنا التكبيرة الأولى . . لنا الأفق . . لنا الرايات والصوت البديلْ
ولنا السيف الذي خبّأه البرق إلى اليوم الثقيل
ولنا الشجر الأخضر والماء الذي تجري إليه الطير . . والظل الظليل
ولنا قارورة العطر التي تسفحها الشمس على كف الأصيل[1]

* * *

(١) قصيدة (حينما تزهر الحروف) من ديوان «إنها الصحوة» لمحمود مفلح ص(٣٧ ـ ٣٩).

١ ـ المبشرات من القرآن الكريم:

* قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢ ـ ٣٣].

* قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨ ـ ٩].

❑ قال ابن جرير الطبري: «يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ: هذا ساحر مبين يريدون ليبطلوا الحق الذي بعث اللَّه به محمدًا ﷺ بأفواههم يعني: بقولهم: إنه ساحر، وما جاء به سحر ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ واللَّه معلن الحق ومظهر دينه، وناصر محمداً عليه الصلاة والسلام على من عاداه، فذلك إتمام نوره، وعُني بالنور في هذا الموضع الإسلام، وكان ابن زيد يقول: عُني به القرآن»[1].

❑ ويقول ابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ: «يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي: الذي بُعث به رسول اللَّه ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد افترائهم، فمثلهم كمن يريد أن يُطفئ نور الشمس أو القمر بنفخة وهذا لا سبيل إليه؛ فكذلك ما أرسل به رسول اللَّه ﷺ لا بد أن يتم ويظهر. ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما أرادوه ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾،

(١) «جامع البيان» لابن جرير (١١/ ٨٨) طبع مصطفى الحلبي.

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع، ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: على سائر الأديان»[١].

❑ وقال ابن كثير: «يحاولون أن يردوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يُطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل فذلك مستحيل»[٢].

✍ «كم صدّوا عن سبيله صدّا، ومنْ ذا يُدافع السيل إذا هدر؟ واعترضوه بالألسنة ردّا، ولعمري مَن يردّ على اللَّه القدر؟ وتخاطروا له بسفهائهم كما تخاطرت الفحول بأذناب[٣]، وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه من كل داهية ناب. فما كان إلا نور الشمس لا يزال الجاهل يطمع في سرابه، ثم لا يضع منه قطرة في سقائه، ويلقى الصبي غطاءه ليخفيه بحجابه، ثم لا يزال النور ينبسط على غطائه.

✍ كم أبرقوا وأرعدوا حتى سال بهم وبصاحبهم السيل، وأثاروا من الباطل في بيضاء ليلها كنهارها[٤] ليجعلوا نهارها كالليل، فما كان لهم إلاّ ما قاله اللَّه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ...﴾ [الأنبياء: ١٨].

---

(١) «تفسير ابن كثير».

(٢) «تفسير ابن كثير».

(٣) إذا تصاولت الفحول من الإبل تخاطرت بأذنابها كأنها يهدد بعضها بعضًا.

(٤) أي: في هذه الملّة السمحة.

✍ هل رأوا إلا دينًا يضيء الدنيا كالمصابيح، فعصفوا عليه بأفواههم كما تعصف الريح، يريدون أن يطفئوا نور اللَّه!!، وأين سراج النجم من نفخة ترتفع إليه كأنما تذهب تُطفيه، ونور القمر من كفٍّ يحسب صاحبها أنها في حجمه فيرفعها كأنما يُخفيه!! وهيهات هيهات دون ذلك دَرْج الشمس وهي أم الحياة في كفن، وإنزالها بالأيدي وهي روح النهار في قبر من كهوف الزمن»[1].

لا جرم أن الإسلام من السماء فهو نور اللَّه في أفق الدنيا حتى تزول، ومعنى الخلود في دولة الأرض إلى أن تدول، وكذلك تمادى الكافرون في طغيانهم يعمهون، وظلّت آياته تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون.

✍ هذا الوعد الحق من اللَّه، الدال على سنته التي لا تتبدل في إظهار نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون، تطمئن له قلوب الذين آمنوا، فيدفعهم هذا إلى المضي في الطريق على المشقة واللأواء في الطريق، وعلى الكيد والحرب من الكافرين أهل الكتاب. كما أنه يتضمن في ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان.

* قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

هذا توكيد لوعد اللَّه الأول: ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ فنور اللَّه الذي قرر سبحانه أن يتمه، هو دين الحق الذي

(١) «وحي القلم».

أرسل به رسوله ليظهره على الدين كله.

ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول اللَّه ﷺ وخلفائه، ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان. وكان دين الحق أظهر وأغلب.

وكانت الأديان التي لا تخلص فيها الدينونة للَّه تخاف وترجف! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه.. ولكن هذه ليست نهاية المطاف.. إن وعد اللَّه قائم، ينتظر العصبة المسلمة، التي تحمل الراية وتمضي.

* المصباح الذي أناره محمد ﷺ تألب عليه «مليون» أبي لهب يطفئونه:

✍ إن هذا المصباح السماوي تألب عليه مليون أبي لهب.. مليون حيي بن أخطب مليون عبد اللَّه بن سبأ.. مليون فرناندو وإيزابيلا.. مليون أتاتورك، مليون طاغوت، ولكن هيهات هيهات.

شعلة الإسلام لن تطفئها نفخة العدوان.. أو عصف السَّخيمة

* * *

✍ وقف بنو إسرائيل في وجه الدين الجديد وقفة العداء والكيد والتضليل، وحاربوه بشتى الوسائل والطرق حربًا شعواء لم تضع أوزارها حتى اليوم. حاربوه بالاتهام، وحاربوه بالدس والوقيعة داخل المعسكر الإسلامي، للإيقاع بين المهاجرين والأنصار في المدينة، وبين الأوس والخزرج من الأنصار. وحاربوه بالتآمر مع المنافقين تارة ومع المشركين تارة. وحاربوه بالانضمام إلى معسكرات المهاجمين كما في غزوة الأحزاب، وحاربوه بالإشاعات الباطلة كما جرى في حديث الإفك على

يد عبد اللّه بن أبي بن سلول، ثم ما جرى في فتنة عثمان على يد عدو اللّه عبد اللّه بن سبأ.

✍ وحاربوه بالأكاذيب والإسرائيليات التي دسّوها في الحديث وفي السيرة وفي التفسير حين عجزوا عن الوضع والكذب في القرآن الكريم.

✍ ولم تضع الحرب أوزارها لحظة واحدة حتى اللحظة الحاضرة. فقد دأبت الصهيونية العالمية والصليبية العالمية على الكيد للإسلام، وظلتا تغيران عليه، أو تؤلبان عليه في غير وناة ولا هدنة في جيل من الأجيال.

✍حاربوه في الحروب الصليبية في المشرق، وحاربوه في الأندلس في المغرب، وحاربوه في الوسط في دولة الخلافة الأخيرة حربًا شعواء حتى مزّقوها وقسموا تركة من كانوا يسمونه «الرجل المريض»... واحتاجوا إلى أن يخلقوا أبطالاً مزيّفين في أرض الإسلام يعملون لهم في تنفيذ أحقادهم ومكايدهم ضد الإسلام. فلما أرادوا تحطيم «الخلافة» والإجهاز على آخر مظهر من مظاهر الحكم الإسلامي صنعوا في تركيا «بطلاً»!.. وهو القزم كمال أتاتورك ونفخوا فيه. وتراجعت جيوش الحلفاء التي كانت تحتل الأستانة أمامه لتحقق منه بطلاً في أعين مواطنيه. بطلاً يستطيع إلغاء الخلافة وإلغاء اللغة العربية، وفصل تركيا عن المسلمين، وإعلانها دولة علمانية لا علاقة لها بالدين! وهم يكررون صنع هذه البطولات المزيفة كلما أرادوا أن يضربوا الإسلام في بلد من بلاد المسلمين، ليقيموا مكانه عصبية غير عصبية الدين! وراية غير راية الدين.

فهم يدسون ويكيدون محاولين القضاء على الدين، يحاولون إطفاء

نور اللَّه بنفخة من أفواههم وهم هم الضعاف المهازيل!

✍ ينفثون دخان قلوبهم السوداء، ويعملون كما تعمل الأعاصير على إهداء الوجوه والأعين والأنفاس صحفًا مُنشرة من غبار الأرض، إن لم تكن مرضًا فأذًى، وإن لم يكن أذى فضيق، وإن لم تكن ضيقًا فلن تكون شيئًا مما يُساغ، أو يُقبل أو يُحب!

سلكوا في الدعوة إلى الكفر والإلحاد شعابًا جُددًا، وللتشكيك في الدين طرائق قددًا. وهيهات أن ينالوا من نور اللَّه شيئًا.

* ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾:

✍ وصدق وعد اللَّه.. أتم نوره في حياة الرسول ﷺ فأقام الجماعة الإسلامية صورة حية واقعة من المنهج الإلهي المختار. صورة ذات معالم واضحة وحدود مرسومة، تترسمها الأجيال لا نظرية في بطون الكتب، ولكن حقيقة في عالم الواقع.

✍ وأتم نوره فأكمل للمسلمين دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام دينًا يحبونه، ويجاهدون في سبيله، ويرضى أحدهم أن يُلقى في النار ولا يعود إلى الكفر، ولا يعلم في الأرض قوم غير المسلمين يعتصمون بدينهم وأيديهم في الأغلال، ويجنحون إليه بأعناقهم وهي في ربَق الملوك من الإذلال، ويخصونه بقلوبهم حتى يكون أملك بها، وأغلب عليها، ولا يحتملون فيه سخطة، ولا يؤثرون عليه رضى، ولا يعدلون به عِدلاً، ويتبرمون ولا يرضون المحنة في كل شيء إلا فيه.

فتمّت حقيقة الدين في القلوب وفي الأرض سواء. وما تزال هذه الحقيقة تنبعث بين الحين والحين، وتنبض وتنتفض قائمة على الرغم من

كل ما جُـرِّد على الإسلام والمسلمين مـن حرب وكيد وتـنكيل وبـطش شديد؛ لأن نور الـلَّه لا يمكن أن تطفـئه الأفواه، ولا أن تطمسـه كذلك النار والحديد، في أيـدي العبيد! وإن خُيِّل للطغاة والجـبارين، وللأبطال المصنوعين على أعين الصليبيين واليهود أنهم بالغو هذا الهدف البعيد.

✍ لقـد جرى قدر اللَّـه أن يظهـر هذا الديـن، فكان من الحـتم أن يكـون: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾، وشهادة اللَّه لهذا الدين بأنه «الهدى ودين الحق» هي الشهادة، وهي كلمة الفصل التي ليس بعدها زيادة.

ولقد تمت إرادة اللَّه فظهر هذا الدين على الدين كله. ظهر في ذاته كدين، فمـا يثبت له دين آخر فـي حقيقته وفـي طبيعته، فأمـا الديانات الوثنيـة فليست في شـيء من هذا المجال، وأما الديـانات الكتابيـة فهذا الدين خاتمتها، وهو الصورة الأخيرة الكاملة الشاملة منها، فهو هي، في الصورة العليا الصالحة إلى نهاية الزمان.

ولقد حُرِّفت تلـك الديانات وشُوِّهت ومُزِّقت وزيد علـيها ما ليس منها، ونقصت مـن أطرافها وانتهت لحال لا تصلح معـه لشيء من قيادة الحياة. وحتى لو بقـيت من غير تحريف ولا تشويه فهي نـسخة سابقة لم تشمل كل مطالب الحياة المتجـددة أبدًا؛ لأنها جاءت في تقدير اللَّه لأمد محدود.

✍ فهذا تحقيق وعد اللَّه من ناحية طبيعة الدين وحقيقته.

✍ فأما من ناحية واقع الحياة، فقد صدق وعد اللَّه مرة، فظهر هذا الدين قوة وحقيقة ونظام حكم على الـدين كله، فدانت له معظم الرقعة

المعمورة في الأرض في مدى قرن من الزمان. ثم زحف زحفًا سلميًّا بعد ذلك إلى قلب آسيا وأفريقية، حتى دخل فيه بالدعوة المجردة خمسة أضعاف من دخلوا في إبان الحركات الجهادية الأولى.. وما يزال يمتد بنفسه دون دولة واحدة منذ أن قضت الصليبية العالمية والصهيونية على الخلافة العثمانية على يد القزم أتاتورك، وعلى الرغم من كل ما يرصد له في كل أنحاء الأرض من حرب وكيد.

وما تزال لهذا الدين أدوار في تاريخ البشرية يؤديها، ظاهرًا ـ بإذن اللَّه ـ على الدين كله تحقيقًا لوعد اللَّه، الذي لا تقف له جهود العبيد المهازيل، مهما بلغوا من القوة والكيد والتضليل.

* قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨]:

لقد ظهر دين الحق، لا في الجزيرة وحدها، بل ظهر في المعمور من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان، ظهر في إمبراطورية كسرى كلها، وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر، وظهر في الهند وفي الصين، ثم في جنوب آسيا «في الملايو» وغيرها، وفي جزر الهند الشرقية «أندونيسيا» وكان هذا هو معظم المعمور من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي.

✍ وما يزال دين الحق ظاهرًا على الدين كله ـ حتى بعد انحساره السياسي عن جزء كبير من الأرض التي فتحها وبخاصة في أوربا وجزر البحر الأحمر، وانحسار قوة أهله في الأرض كلها بالقياس إلى القوة التي ظهرت في الشرق والغرب في هذا الزمان.

أجل ما يزال دين الحق ظاهراً على الدين كله، من حيث هو دين، فهو الدين القوي بذاته، القوي بطبيعته، الزاحف بلا سيف ولا مدفع من أهلـه! لما في طبـيعتـه من استقـامة مع الـفطرة ومـع نواميس الـوجود الأصليـة، ولما فيه مـن تلبيـة بسيطـة عميقـة لحاجات العـقل والروح، وحاجات العمران والتقدم.

✍ وما من صاحب دين غير الإسلام ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقرّ باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة، وقدرته على قيادة البشريـة قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامـية المتطورة في يسر واستقامة﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾ .

✍ ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الـذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم! فغيـر أهله يدركونها ويخشونـها ويحسبون لها في سيـاساتهم كل حساب!.

* * *

* الإسلامُ كالشمس لا يغرُب مطلقا:

إن الإسلام كالشمـس إذا غربت في جهة، طلعـت في جهة أخرى فلا تزال طالعة.

إن الإسلام لم ينكَّب في ناحية من نـواحي العالم، ولم يخسر في جانب دولة إلا وقامـت له دولة في جانب آخر؛ ولم تـسقط له راية إلا وخفقت له راية أخرى؛ ولم يغب له نجم، إلا وطلع له نجم آخر.

لقد كانت خسارة الأندلس الإسلامية كارثة كبيرة، ومصاباً عظيماً،

ولكن عوّض الإسلام بها بدولة فتيّة من أعظم دول العالم، هي دولة آل عثمان في تركيا قامت في نفس القارة الأوربية، وجثمت على صدر الدول والأمم التي انتزعت الأندلس الإسلامية.

وكان سقوط غرناطة، وأوج الدولة العثمانية، في عهد سليمان القانوني، حادثين في عصر واحد.

ونُكب العالم الإسلامي، ونُكبت بغداد بغارة التتار، وانطمست معالم الحضارة الإسلامية، وزلزل المسلمون زلزالاً شديداً، ولكن في نفس هذه الفترة كانت الدولة المسلمة في الهند تتسع وتزدهر.

وهكذا لم يزل التاريخ الإسلامي متأرجحًا بين الأسفل والأعلى؛ فما تسفّل منه جانب إلا وترفّع جانب آخر، ولم تتوار شمسه في أفق إلا وبزغت في أفق آخر، وذلك لأن رسالة الإسلام رسالة اللَّه الأخيرة التي لا رسالة بعدها، وإذا ضاع المسلمون فقد ضاعت الرسالة، وإذا هلكوا فقد غرقت السفينة التي تحمل الذخيرة والخير كل الخير.

* وقال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن كثير: «هذا وعد من اللَّه تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته الولاة على الناس فتصلح بهم البلاد، وتخضع لهم العباد وليبدلنهم بعد خوفهم أمنًا وحكمًا، وقد فعله تبارك وتعالى وله الحمد

والمنة، فـفتح رسول اللَّـه ﷺ مكة وخيبر والـبحرين وسائـر جزيرة العرب وأرض الـيمن بكامـلها، وأخذ الجـزية من مجوس هـجر، ومن بعض أطراف الشام وهاداه هرقل والمقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملّك بعد النجاشي المسلم أصحمة ـ رحمه اللَّه وأكرمه ـ.

✍ ثم تولـى أبو بكر الصديـق فلمّ شعث مـا وهى بعد موته عـليه الصلاة والسلام فمهّد الجزيرة العربيـة، وفتح طرفًا من فارس بقيادة خالد ابن الوليد، وفتح بصرى ودمشق وحـوران بقيادة أبي عبيدة ـ رضي اللَّه عنهم أجمعين ـ، وألهم اللَّه الصديق أن يستخلف عمر الفاروق الذي قام بعده بالأمر قيامًا تامًّا فتمّ في أيامه فتح الشام ومصر وأكثر إقليم فارس وتقهقـر كسرى إلى أقصى مملـكته، وفرّ قيصر إلى الـقسطنطينـية وأنفق أموالهما في سبيل اللَّه.

ثم امـتدت دولة عـثمـان إلى أقصـى مشارق الأرض ومـغاربـها، ففتـحت المغرب إلـى البحر المحيـط، ومن ناحيـة المشرق مدائـن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون الترك مقتلة عظيمة جدًّا، وخذل اللَّه ملكـهم (خاقان). فـها نحن نتـقلّب فيمـا وعدنا اللَّـه ورسوله ﷺ، وصدق اللَّه ورسوله ﷺ فنسأل اللَّـه الإيمان به وبرسوله ﷺ والقيام بشكره على الوجـه الذي يرضيه عنا. فالصحابة ـ رضـي اللَّه عنهم ـ لمّا كانوا أقوم الـناس بعد النبي ﷺ بـأوامر اللَّه عز وجل وأطـوعهم له، كان نصرهم بحـسبهم، ولما قصّر الناس بعدهم فـي بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم.

● وقد ثبت في «الصحيحين» عن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تزال

طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة ـ وفي رواية ـ حتى يأتي أمر اللَّه وهم على ذلك ـ وفي رواية ـ حتى يُقاتلوا الدجال ـ وفي رواية ـ حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون» وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها.

✍ تكريم علوي جليل يحتاج منا إلى حس يقظ وبصيرة مفتوحة لنتصور معنى الاضطلاع بأمانة الهداية إلى اللَّه وحفظ العهد مع اللَّه ليرتفع الإنسان على مقام الملائكة فما باله يشقي نفسه ويهبط من عليائه، ويخوض في الوحل والمستنقع الآسن العفن.

✍ عقد الاستخلاف وتمكين الدين في القلوب وتمكينه في تصريف الحياة وتدبيرها وهيمنته على الأرض ـ قائم على تلقي الهدى من اللَّه، والتقيد بمنهجه في الحياة إيمانًا به يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه وأشواق روحه، وميول فطرته، حركاته وسكناته، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله والناس جميعًا ليحققوا النهج الذي أراده اللَّه ويقرروا العدل الذي أراده اللَّه، ويسيروا بالبشرية خطوات في طريق الكمال المقدر لها يوم أنشأها اللَّه.

لقد تحقق وعد اللَّه مرة، وظل متحققًا وواقعًا ما قام المسلمون على شرط اللَّه، ووعد اللَّه مذخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة، إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن لتخلف شرط اللَّه في جانب من جوانبه الفسيحة، أو في تكليف من تكاليفه الضخمة، حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء، وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن، وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الاستخلاف..

كل ذلك بوسائله التي أرادها اللَّه، وبشروطه التي قررها اللَّه، تحقق وعد اللَّه الذي لا يتخلف، ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعًا.

✍ إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتملاها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد اللَّه في تلك الآيات، ولا بد أن يبحث عن مصداقها في تاريخ البشرية، وهو يدرك شروطها على حقيقتها، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب، أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج اللَّه، وحكّمت هذا النهج في الحياة وارتضته في كل أمورها إلا تحقق وعد اللَّه بالاستخلاف والتمكين والأمن. وما من مرة خالفت هذا النهج إلا تخلّفت في ذيل القافلة، وذلت، وطردت من الهيمنة على البشرية، واستبد بها الخوف، وتخطفها الأعداء.

ألا إن وعد اللَّه قائم، ألا وإن شرط اللَّه معروف. فمن شاء الوعد فليقم بالشرط ومن أوفى بعهده من اللَّه؟

❑ قال الإمام ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ: «يأبى عدل اللَّه أن يولي علينا أمثال معاوية فضلاً عن أبي بكر وعمر، فإن ولاتنا على قدرنا وولاة السلف على قدرهم، وكأن أعمالنا ظهرت في جنس عمّالنا.

* وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

الوعد واقع وكلمة اللَّه قائمة. ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض؛ وقام بناء الإيمان، على الرغم من جميع العوائق، وعلى الرغم

من تكذيب المكذبين، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين. ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار، وذهبت سطوتهم ودولتهم؛ وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل تسيطر على قلوب الناس وعقولهم، وتكيّف تصوراتهم وأفهامهم. وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض. وكل المحاولات التي بُذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل، وتغليب أي فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل. باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها. وحقت كلمة اللَّه لعباده المرسلين. إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون.

هذه بصفة عامة. وهي ظاهرة ملحوظة في جميع بقاع الأرض، في جميع العصور. وهي كذلك متحققة في كل دعوة للَّه، يخلص فيها الجند، ويتجرد لها الدعاة.

إنها غالبة منصورة مهما وُضعت في سبيلها العوائق، وقامت في طريقها العراقيل. ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار، وقوى الدعاية والافتراء، وقوى الحرب والمقاومة، وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها، ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده اللَّه لرسله. والذي لا يُخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه، الوعد بالنصر والغلبة والتمكين.

هذا الوعد سنة من سنن اللَّه الكونية. سنة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان.

ولكنها مرهونة بتقدير اللَّه، يحققها اللَّه حين يشاء. وقد تبطئ آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة، ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلّف، وقد تحقق في صورة لا يدركها البشر؛ لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة، ولا يدركون تحقق السنة في صورة جديدة إلا بعد حين!

وقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة كجند اللَّه وأتباع رسله، ويريد اللَّه صورة أخرى أكمل وأبقى، فيكون ما يريده اللَّه، ولو تكلف الجند من المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون..

لقد أراد المسلمون قُبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش، وأراد اللَّه أن تفوتهم القافلة الرابحة الهنية؛ وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة، وكان ما أراده اللَّه هو الخير لهم وللإسلام، وكان هو النصر الذي أراده اللَّه لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام.

✍ وقد يهزم جنود اللَّه في معركة من المعارك، وتدور عليهم الدائرة، ويقسو عليهم الابتلاء؛ لأن اللَّه يعدهم للنصر في معركة أكبر ولأن اللَّه يهيئ الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع، وفي خط أطول، وفي أثر أدوم.

لقد سبقت كلمة اللَّه، ومضت إرادته بوعده، وثبتت سنته لا تتخلّف ولا تحيد.

* وقال تعالى: ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ [غافر: ٥١ ـ ٥٢].

«أما في الآخرة فقد لا يجادل أحد من المؤمنين بالآخرة في هذه النهاية.

وأما النصر في الحياة الدنيا فقد يكون في حاجة إلى جلاء وبيان.

إن وعد اللَّه قاطع جازم: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بينما يشاهد الناس أن الرسل منهم من يُقتل، ومنهم من يهاجر من أرضه وقومه مكذبًا مطرودًا، وأن المؤمنين فيهم من يُسام العذاب، وفيهم من يلقى في الأخدود، وفيهم من يستشهد، وفيهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد.. فأين وعد اللَّه لهم بالنصر في الحياة الدنيا؟ ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل، ويفعل بها الأفاعيل!

ولكن الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كثيرة وحقائق كثيرة في التقدير.

إن الناس يقيسون بفترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان، وهي مقاييس بشرية صغيرة. فأما المقياس الشامل فيعرض القضية في الرقعة الفسيحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصر وعصر، ولا بين مكان ومكان.

ولو نظرنا إلى قضية الاعتقاد والإيمان في هذا المجال لرأيناها تنتصر من غير شك.

وانتصار قضية الاعتقاد هو انتصار أصحابها فليس لأصحاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجودها. وأول ما يطلبه منهم الإيمان أن يفنوا فيها ويختفوا هم ويبرزوها!

والناس كذلك يقصرون معنى النصر على صورة معينة معهودة

لهم، قريبة الرؤية لأعينهم. ولكن صور النصر شتى. وقد يتلبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة.. إبراهيم عليه السلام وهو يُلقى في النار فلا يرجع عن عقيدته ولا عن الدعوة إليها.. أكان في موقف نصر أم في موقف هزيمة؟ ما من شك ـ في منطق العقيدة ـ أنه كان في قمة النصر وهو يُلقى في النار. كما أنه انتصر مرة أخرى وهو ينجو من النار. هذه صورة وتلك صورة. وهما في الظاهر بعيد من بعيد. فأما في الحقيقة فهُما قريب من قريب!..

والحسين ـ رضوان اللَّه عليه ـ وهو يستشهد في تلك الصورة العظيمة من جانب، والمفجعة من جانب؟ أكانت هذه نصرًا أم هزيمة؟ في الصورة الظاهرة وبالمقياس الصغير كانت هزيمة. فأما في الحقيقة الخالصة وبالمقياس الكبير فقد كانت نصرًا.

فما من شهيد في الأرض تهتز له الجوانح بالحب والعطف، وتهفو له القلوب وتجيش بالغيرة والفداء كالحسين ـ رضوان اللَّه عليه ـ.

وكم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده. وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزًا محركًا للأبناء والأحفاد، وربما كانت حافزًا محرّكًا لخطا التاريخ كله مدى أجيال.. ما النصر؟ وما الهزيمة؟ إننا في حاجة إلى أن نراجع ما استقرّ في تقديرنا من الصور ومن القيم قبل أن نسأل: أين وعد اللَّه لرسله وللمؤمنين بالنصر في الحياة الدنيا؟!

على أن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة. ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريبة بصورة باقية ثابتة.. لقد انتصر محمد ﷺ.. في حياته لأن هذا النصر يرتبط بمعنى إقامة هذه العقيدة بحقيقتها الكاملة في الأرض، فهذه العقيدة لا يتم تمامها إلا بأن تهيمن على حياة الجماعة البشرية وتصرفها جميعًا من القلب المفرد إلى الدولة الحاكمة، فشاء اللَّه أن ينتصر صاحب هذه العقيدة في حياته، لتتحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعة تاريخية مشهودة ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحقيقية وفق تقدير اللَّه وترتيبه»[1].

* النصر الداخلي على الذات والشهوات قبل النصر الخارجي:

«وهناك اعتبار آخر تحسن مراعاته كذلك. إن وعد اللَّه قائم لرسله وللذين آمنوا.. ولا بد أن توجد حقيقة الإيمان في القلوب التي ينطبق هذا الوعد عليها. فتتجه للَّه وحده، وتتوكل عليه وحده، وتطمئن إلى قضاء اللَّه وقدره، وتغمر القلوب الطمأنينة والثقة والرضى والقبول، حين تصل القلوب إلى هذه الدرجة فلن تقدم بين يدي اللَّه، ولن تقترح عليه صورة معينة من صور النصر أو صور الخير.. فسيكِلُ هذا كله للَّه، ويلتزم، ويتلقى كل ما يصيبه على أنه الخير.. وذلك معنى من معاني

(١) «الظلال» (٥/ ٣٠٨٥ ـ ٣٠٨٦).

النصر.. النصر على الذات والشهوات، وهو النصر الذي لا يتم نصر خارجي بدونه بحال من الأحوال».

* الأمة المسلمة فوق الأمم في الدنيا والآخرة:

* قول الله تعالى لعيسى عليه السلام:

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

[آل عمران: ٥٥].

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: «لما بعث اللَّه محمدًا ﷺ فكان كل من آمن به يؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكان أتباع محمد هم أتباع كل نبيّ على وجه الأرض؛ لأنه دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، فلهذا ولما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقًّا، سلبوا النصارى بلاد الشام، وألجؤوهم إلى الروم، فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية، ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة.

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جدًّا لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وكذلك فعل بمن كفر من اليهود، أو غلا فيه أو أطراه من النصارى، عذّبهم في الدنيا بالقتل والسبي وإزالة الأيدي من الممالك، وفي الدار الآخرة عذابهم أشق.

وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم، أي في الدنيا بالنصر والظفر، وفي الآخرة بالجنات العاليات».

الذين آمنوا فوق الـذين كفروا في واقع الحياة كلما واجهـوا بحقيقة الإيمان.

* وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ [البقرة: ٢١٢].

قال ابن كثير: «فـوق أولئك في محشرهم ومنشـرهم ومسراهم ومأواهـم فاستقـروا في الدرجـات في أعلـى عليين وخـلُد أولئـك في الدركات في أسفل سافلين».

يمد المؤمـن بصره إلى آفاق بـعيدة، ينـشد منها أن يـقرّ في الأرض منهجًـا، وأن يقود البشرية إلـى ما هو أرفع وأكمل، وأن يركـز راية اللَّه فوق هامات الأرض والناس ليتطلع إليها البشر في مكانها الرفيع وليمدوا بأبصارهم وراء الواقـع الزهيد المحدود الذي يحيا له مـن لم يهبه الإيمان رفعة الهدف، وضخامة الاهتمام، وشمول النظرة.

وينظر الصـغار الغارقون في وحل الأرض، المسـتعبدون لأهداف الأرض، ينظرون للـذين آمنوا فيرونهم يـتركون لهم وحلهم وسـفاسفهم ومتاعهم الزهيد، ليحاولوا آمالاً كبارًا لا تخصهم وحدهم، ولكن تخص البشريـة كلها، ولا تتعلّق بـأشخاصهم إنما تتـعلق بعقيدتهـم؛ ويرونهم يعانون منها المشقات، ويقاسون فيهـا المتاعب، ويحرمون أنفسهم اللذائذ التي يعدّها الصـغار خلاصة الحياة وأعلى أهدافها المرموقـة ينظر الصغار المطموسـون إلى الذين آمنوا فـلا يدركون سر اهتمامـاتهم العليـا عندئذ

يسخرون منهم؛ من حالهم، ويسخرون من تصوراتهم، ويسخرون من طريقهم الذي يسيرون فيه وهم أحق بالرثاء والإشفاق والذين اتقوا فوقهم بشهادة اللَّه أحكم الحاكمين.

واللَّه يدّخر لهم ما هو خير، وما هو أوسع من الرزق، يهبهم إياه حيث يختار، واختياره للأخيار هو الأبقى والأعلى، يرفعهم عن سفساف الحياة وأعراض الأرض، واهتمامات الصغار، ويصبحون سادة الحياة، لا عبيدًا للحياة كما قال ربعي بن عامر: «إن اللَّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة».

وسيظل المؤمنون ينظرون من علٍ إلى أولئك الهابطين مهما أوتوا من المتاع والأعراض الذين زينت لهم الحياة الدنيا، واستعبدتهم أعراضها وقيمها، وشدّتهم أوهامهم إلى الطين فلصقوا به لا يرتفعون!

* أنتم الأعلون:

* وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٩].

«الحالة الدائمة التي ينبغي أن يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والأحداث والقيم والأشخاص سواء.

الاستعلاء بالإيمان على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان، وعلى قيم الأرض التي لم تنبثق من الإيمان، وعلى تقاليد الأرض التي لم يصغها الإيمان، وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان، وعلى

أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان.

✍ الاستعلاء مع ضعف القوة، وقلة العدد، وفقر المال، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء.

والاستعلاء بالإيمان ليس مجرد عزمة مفردة، ولا نخوة دافعة، ولا حماسة فائرة، إنما هو الاستعلاء القائم على الحق؛ لأنه موصول بالحي الذي لا يموت.

✍ إن المؤمن هو الأعلى.. الأعلى سنداً ومصدراً.. فما تكون الأرض كلها؟ وما يكون الناس؟ وهو من اللَّه يتلقى، وإلى اللَّه يرجع وعلى منهجه يسير؟

✍ وهو الأعلى إدراكًا وتصوراً لحقيقة الوجود لإيمانه باللَّه حين يُقاس إلى ذلك الركام من العقائد الوثنية والكتابية المحرّفة، وما اعتسفته المذاهب المادية الكالحة.

✍ وهو الأعلى تصوّراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص لا الموازين المختلفة في أيدي البشر الذين لا يدركون إلا ما تحت أقدامهم، ولا يثبتون على ميزان واحد في الجيل الواحد، بل في الأمة الواحدة، بل في النفس الواحدة من حين إلى حين.

✍ وهو الأعلى ضميراً وشعوراً وخُلُقًا وسلوكًا عنده الرفعة والطهارة والعفة والتقوى وطمأنينة القلب.

✍ وهو الأعلى شريعة ونظامًا بدلاً من محاولات الأطفال وخبط العميان والشقوة والضلال، وهكذا كان المسلمون الأوائل يقفون أمام

المظاهر الجوفاء والقوى المنتفخة، يضج الباطل ويصخب ويرفع صوته، وينفش ريشه، وتحيط به الهالات المصطنعة التي تغشى على الأبصار والبصائر فلا ترى ما وراء الهالات من قبح شائه دميم، وفُجْر كالح لئيم، . . وينظر المؤمن من علٍ إلى الباطل المنتفش فلا يهن ولا يحزن ولا ينتقص إصراره على الحق الذي معه، وثباته على المنهج الذي يتبعه.

✍ ويغرق أهل الباطل في شهواتهم الهابطة، ويمضون مع نزواتهم الخليعة، ويلصقون بالوحل والطين، يظنون أنهم ينطلقون من القيود، وتعزّ في مجتمعهم كل متعة بريئة ولا يبقى إلا المشروع الآسن، وإلا الوحل والطين.

✍ وينظر المؤمن من علٍ إلى الغارقين في الوحل اللاصقين بالطين، وهو مفرد وحيد فلا تراوده نفسه أن يخلع رداءه النظيف الطاهر، وينغمس في الحمأة، وهو الأعلى بمتعة الإيمان ولذة اليقين.

✍ ويقف المؤمن قابضًا على دينه كالقابض على الجمر، ويقف الشاردون عن دين اللَّه، وعن الفضيلة، والقيم العليا، والاهتمامات النبيلة، وعن كل ما هو طاهر نظيف جميل، هازئين بوقفته، ساخرين من تصوراته، ضاحكين من قيمه. . . فما يهن المؤمن وهو ينظر إلى الساخرين، والهازئين والضاحكين، وهو يقول كما قال واحدٌ من الرهط الكرام الذين سبقوه في موكب الإيمان العريق الوضيء، في الطريق اللاحب الطويل. . نوح عليه السلام: ﴿**قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ**﴾ [هود: ٣٨]، وهو يرى نهاية الموكب الوضيء. . ونهاية القافلة البائسة في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ**

آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣٦].

* وقديمًا قصّ علينا القرآن قول الكافرين للمؤمنين: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

إنه منطق الأرض، منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان، والمؤمن لا يستمد قيمه وتصوراته وموازينه من الناس حتى يأسى على تقدير الناس، إنما يستمدها من رب الناس وهو حسبه وكافيه. . إنه لا يستمدها من شهوات الخلق حتى يتأرجح مع شهوات الخلق، إنما يستمدها من ميزان الحق الثابت الذي لا يتأرجح ولا يميل.

إنه لا يتلقاها من هذا العالم الفاني المحدود، إنما ينبثق في ضميره من ينابيع الوجود. .

فأنّى يجد في نفسه وَهنًا، أو يجد في قلبه حزنًا وهو موصولٌ برب الناس وميزان الحق وينابيع الوجود.

إنه على الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وليكن للضلال سلطانه، وليكن له هيله وهيلمانه، إن هذا لا يغيّر من الحق شيئًا، إنه على الحق وليس بعد الحق إلا الضلال»[1].

(١) مختصراً من فصل (استعلاء الإيمان) من كتاب «معالم في الطريق».

* ومن المبشرات في القرآن:

* قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦].

اللَّه سبحانه يريد من المسلم أن يسلم لمجرد أن الإسلام خير! لا لأنه سيغلب، أو سيمكن له في الأرض؛ فهذه ثمرات تأتي في حينها؛ وتأتي لتحقيق قدر اللَّه في التمكين لهذا الدين؛ لا لتكون هي بذاتها الإغراء على الدخول في هذا الدين..

والغلب للمسلمين لا شيء منه لهم، لا شيء لذواتهم وأشخاصهم، وإنما هو قدر اللَّه يجريه على أيديهم ويرزقهم إياه لحساب عقيدتهم لا لحسابهم!

فيكون لهم ثواب الجهد فيه؛ وثواب النتائج التي تترتب عليه من التمكين لدين اللَّه في الأرض، وصلاح الأرض بهذا التمكين.

✍ كذلك قد يعد اللَّه المسلمين الغلب لتثبيت قلوبهم، وإطلاقها من عوائق الواقع الحاضر أمامهم ـ وهي عوائق ساحقة في أحيان كثيرة، فإذا استيقنوا العاقبة قويت قلوبهم على اجتياز المحنة؛ وتخطّي العقبة، والطمع في أن يتحقق على أيديهم وعد اللَّه للأمة المسلمة، فيكون لهم ثواب الجهاد، وثواب التمكين لدين اللَّه. وثواب النتائج المترتبة على هذا التمكين.

فغلبة حزب اللَّه قاعدة؛ لا تتعلق بزمان ولا مكان، نطمئن إليها

بوصفه سنة من سنن اللَّه التي لا تتخلف، وإن خسرت العصبة المؤمنة بعض المعارك والمواقف، فالسنة التي لا تنقض هي أن حزب اللَّه هم الغالبون... ووعد اللَّه القاطع أصدق من ظواهر الأمور في بعض مراحل الطريق! وأن الولاء للَّه ورسوله والذين آمنوا هو الطريق المؤدي لتحقق وعد اللَّه في نهاية الطريق.

* وعلى الطرف الآخر قال اللَّه تعالى عن حزب الشيطان: ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المجادلة: ١٩].

إن الخير بخير، وإن الشر بشر، والشر الخالص ينتهي إلى الخسران الخالص.

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**كما لا يجتنى من الشوك العنبُ، كذلك لا ينزل الفجّارُ منازل الأبرار، فاسلكوا أي طريق شئتم، فأي طريقٍ سلكتم وردتم على أهله**»[(١)].

● وعن أبي ذر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كما لا يُجتنى من الشوك العنبُ كذلك لا يَنزِلُ الفجارُ منازل الأبرار، وهما طريقان فأيهما أخذتم أدركتم إليه**»[(٢)].

---

(١) حسن: رواه أبو نعيم في «الحلية»، عن يزيد بن مرثد، وحسّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٠٤٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٥٧٥).

(٢) صحيح: أخرجه ابن عساكر عن أبي ذر، وكذا رواه أبو نعيم، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٠٤٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٥٧٦).

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠ ـ ٢١].

هذا وعد اللَّه الصادق الذي كان والذي لا بدّ أن يكون على الرغم مما قد يبدو أحيانًا من الظاهر الذي يُخالف هذا الوعد الصادق.

فالذي وقع بالفعل أن الإيمان والتوحيد قد غلبا على الكفر والشرك. واستقرت العقيدة في اللَّه في هذه الأرض، ودانت لها البشرية بعد كل ما وقف في طريقها من عقبات الشرك والوثنية، وبعد الصراع الطويل مع الكفر والشرك والإلحاد.

وإذا كانت هناك فترات عاد فيها الإلحاد أو الشرك إلى الظهور في بعض بقاع الأرض كالدول الملحدة والوثنية والشيوعية، فإن العقيدة في اللَّه ظلّت هي المسيطرة بصفة عامة. فضلاً على أن فترات الإلحاد والوثنية إلى زوال مؤكد؛ لأنها غير صالحة للبقاء. والمؤمن يتعامل مع وعد اللَّه على أنه الحقيقة الواقعة، فإذا كان الواقع في جيل محدود أو في رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة، فهذا الواقع هو الباطل الزائل الذي يوجد فترة في الأرض لحكمة خاصة لعلها استجاشة الإيمان وإهاجته لتحقيق وعد اللَّه في وقته المرسوم.

وحين ينظر الإنسان اليوم إلى الحرب الهائلة التي شنّها أعداء الإيمان على أهل الإيمان في صورها المتنوّعة، من بطش ومن ضغط ومن كيد بكل صنوف الكيد في عهود متطاولة، بلغ في بعضها من عنف الحملة على المؤمنين أن قُتّلوا وشرّدوا وعُذّبوا وقطعت أرزاقهم وسُلّطت عليهم جميع أنواع النكاية، ثم بقي الإيمان في قلوب المؤمنين، يحميهم من

الانهيار، ويحمي شعوبهم كلها من ضياع شخصيتها وذوبانها في الأمم الهاجمة عليها ومن خضوعها للطغيان الغاشم إلا ريثما تنقضّ عليه وتحطمه.. حين ينظر الإنسان إلى هذا الواقع في المدى المتطاول يجد مصداق قول اللَّه تعالى، يجده في هذا الواقع ذاته بدون حاجة إلى الانتظار الطويل!!

وعلى أية حال فلا يخالج المؤمن شك في أن وعد اللَّه هو الحقيقة الكائنة التي لا بد أن تظهر في الوجود، وأن الذين يحادون اللَّه ورسوله هم الأذلون، وأن اللَّه ورسله هم الغالبون، وأن هذا هو الكائن والذي لا بد أن يكون ولتكن الظواهر غير هذا ما تكون!

* القصص القرآني عن الرسل والمكذبين، وكون العاقبة دومًا للمتقين:

يقص اللَّه علينا القصص الحق وأحسن القصص في كتابه الكريم لتثبيت أفئدة المؤمنين وتسلية لهم في هجير الدنيا الكالح قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

* العاقبة للرسل والمتقين:

رؤية الصالحين لحقائق الوجود الكبير أن العاقبة للمتقين.. طال الزمن أم قصر فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا في البلاد فيحسبونهم باقين.

ومهما ظن أعداء الرسل أن الواحد منهم مكين في الأرض غير مزحزح عنها فمالك الأولى والآخرة رب السماوات والأرضين هو الذي يقرر متى يطردهم منها ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

* ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

* ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

يقص اللَّه قصص الرسل وموكبهم الإيماني الجليل يهتف بالبشرية الضالة، يذكرها وينذرها ويحذرها سوء المصير، والبشرية الضالة تلوي وتعاند، وتواجه الدعوة الخيّرة بالعناد والتمرد، ثم بالطغيان والبطش، وقلوب الفاسقين غافية لا تستيقظ ولا تستجيب، ولا تنظر إلى سنن اللَّه، ولا تنتبه جبلاّتهم السادرة في جاهليتها، ولا تهديهم مصارع الغابرين - وهم في ديارهم يسكنون وهي خير مذكّر ومنذر -. ومصارع العتاة البغاة المكذبين للرسل على مدار القرون معروضة، ومشاهدهم تزحم النفس والخيال بعد أن عطّلوا مداركهم، وتولوا عن الهدى وكذبوا بالآيات، واستهزءوا بالوعيد، فصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم.

* قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلاَّ أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤، ٥]، وقال تعالى: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ

حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠].

ما الأقوام؟ إن هم إلا حقول من الأناسي كحقول النبات، غرس منها يزكو وغرس منها خبيث، وغرس منها ينمو، وغرس منها يموت.

* وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨ - ٩].

كثيرة كثيرة تلك القرى التي عتت عن أمر ربها، ثم كان مصيرها البائس، وهي سننٌ متكررة وعبر أمام الناظرين، سنة اللَّه هي سنة اللَّه في الجميع، وسنة اللَّه حق ثابت يقوم عليه هذا الوجود، بلا محاباة لجيل من الناس، وكشف مصائر الغابرين الماضية عن مصائر خلفائهم الآتية: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم: ٩ - ١٠].

لا بد من إدراك لحقيقة الحياة، وحقيقة الإنسانية الموحدة المنشأ والمصير على مدار القرون، كي لا ينعزل جيل من الناس بنفسه وحياته

وقيمه وتصوراته، ويغفل عن الصلة الوثيقة بين أجيال البشر جميعًا، وعن وحدة السنّة التي تحكم هذه الأجيال جميعًا، ووحدة القيم الثابتة في حياة الأجيال جميعًا، والقرآن الكريم يدعو المكذبين المستهزئين بالرسل أن يسيروا في الأرض، وأن يتدبروا عاقبة أولئك المكذبين ويتوقعوا مثلها، وأن يدركوا أن سنة اللَّه واحدة وأنها ماضية في المكذبين الذين لم تتفتح بصائرهم ولم يصل ضمائرهم نور الإيمان.

سنة اللَّه لا تحابي أحدًا. وحدة العاقبة النكدة لأجيال البشرية الضالة لا بد أن يطبع في قلب المؤمن وعقله، وما أكثر حديث القرآن عن مصير المكذبين.

* قال تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

* وقال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

* وقال تعالى عن قوم لوط: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

* وقال تعالى: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٦].

* وقال عن قوم فرعون: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

* وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

* وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ [محمد: ١٠].

* وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

✍ وفي قصة نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون أعظم العظات وترجمة صادقة لحال الرسل وعاقبة أمرهم وعاقبة الذين حادوا الله ورسله.

* قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٤ ـ ٨].

ولد موسى عليه السلام والموت يتلفت عليه، والشفرة مشرعة على عنقه، تهم أن تحتز رأسه، وها هي ذي أمه حائرة به، خائفة عليه قلقة ملهوفة، ترجف أن تتناول عنقه السكين. ها هي ذي بطفلها الصغير في قلب المخافة عاجزة عن حمايته، عاجزة عن إخفائه، عاجزة عن حجز صوته الفطري أن ينمّ عليه، فيلقي اللَّه في روعها ويلهمها أن تلقيه في اليم بدلاً من أن تضمه إلى صدرها.. يا سبحان اللَّه!!.

اليم..؟! في رعاية اللَّه الذي لا أمْن إلا في جواره، من جعل النار على إبراهيم بردًا وسلامًا ويجعل من ثَبَج البحر لموسى ملجأ ومنامًا، ويتهادى التابوت بموسى ليصل إلى قصر فرعون، وهل كانت أم موسى ترجف وتخشى عليه إلا من فرعون وآله، فها هي قدرة اللَّه تلقي في يد فرعون بالطفل الذي يكون هلاكه على يده مجردًا من كل قوة ومن كل حيلة، عاجزًا عن أن يدفع عن نفسه، أو حتى يستنجد!، ها هي ذي تقتحم به على فرعون حصنه وهو الطاغية المتجبر، ولا تتعبه في البحث عنه في بيوت بني إسرائيل، وفي أحضان نسائهم الوالدات.

واقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته، بعد ما اقتحمت به عليه حصنه. لقد حمته بالمحبة ذلك الستار الرقيق الشفيف، لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال، حمته بالحب الحاني في قلب امرأة، وتحدّت به قسوة فرعون وغلظته وحرصه وحذره.. وهان فرعون على اللَّه أن يحمي منه الطفل الضعيف بغير هذا الستار الشفيف! ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ**﴾.

✍ يا لقدرة اللَّه التي تجعل من المحبة الهينة اللينة درعًا تتكسر عليه

الضربات وتتحطم عليه الأمواج، وتعجز قوى الشر كلها أن تمسّ حاملها بسوء، ولو كان طفلاً رضيعًا لا يصول ولا يجول بل لا يملك أن يقول..

رحمة ممثلة في المحبة لا في صيال أو نزال ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾. وما من شرح يمكن أن يضيف شيئًا إلى ذلك الظل الرفيق اللطيف العميق، وكيف يصف لسان بشري، خلقًا يصنع على عين اللَّه؟ إن قصارى أي بشر أن يتأمله ويتملاه.. إنها منزلة وإنها كرامة أن ينال إنسان لحظة من العناية، فكيف بمن صُنع صنعًا على عين اللَّه؟ انظر كم قتل فرعون من أجل ذبح موسى، والقدر يقول له: لا نربّيه إلا في حجرك ليكون على يديه هلاكك.

موسى الذي تُخبِّئ لآل فرعون الأقدار من ورائه ما حذروا منه طويلاً.

وأم موسى التي ألقت بفلذة كبدها إلى الماء، التي فعلت ما لم تفعله أم من قبل، وطلبت له السلامة في هذه المخافة. يحرم اللَّه عليه المراضع ليعود الطفل الغائب لأمه الملهوفة معافى في بدنه، مرموقًا في مكانته، يحميه فرعون!، وترعاه امرأته، وتضطرب المخاوف من حوله، وهو آمن قرير، وترضع أم موسى ولدها وتأخذ أجرًا على ذلك، فيا لتدبير اللَّه العجيب!.

ثم انظر إلى السحرة الذين كانوا يعدون القرب من فرعون نهاية آمالهم ويقسمون بعزته كما قال تعالى عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

وقول اللَّه عنهم: ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤].

ثم يمسّ الحق قلوبهم فيحوّلها تحويلاً، يصل الإيمان إلى أعماق نفوسهم وقرارة قلوبهم، فأزال عنها ركام الضلال، وجعلها صافية حية خاشعة للحق، في لحظات قصار.

ويأتي تهديد فرعون السفاح بلا تحرج من قلب أو ضمير.

* ﴿ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧١].

فتكون كلمة القلب الذي وجد اللَّه فلم يعد يحفل ما يفقد بعد هذا الوجدان، القلب الذي اتصل باللَّه فذاق طعم العزة.

* ﴿ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

يا للَّه! يا لروعة الإيمان إذ يشرق في الضمائر، وإذ يفيض على الأرواح وإذ يسكب الطمأنينة في النفوس، وإذ يرتفع بسلالة الطين إلى أعلى عليين. وإذ يملأ القلوب بالغنى والذخر والوفر، فإذا كل ما في الأرض تافه حقير زهيد.

إنها لمسة الإيمان في القلوب التي كانت منذ لحظة تعنو لفرعون وتعد القربى منه مغنمًا يتسابق إليه المتسابقون، فإذا هي بعد لحظة تواجهه

في قوة، وترخص ملكه وزخرفه وجاهه وسلطانه بعد أن تفتحت لهذه القلوب الآفاق المشرقة الوضيئة.

وألهم السحرة الذين آمنوا بربهم أن يقفوا من فرعون موقف المعلم المستعلي ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾.

وهزأت القلوب المؤمنة بتهديد فرعون، وواجهته بكلمة الإيمان القوية، وباستعلاء الإيمان الواثق.

وكان ما كان.

* ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٢].

يبلغ الكرب مداه ويقول موسى عليه السلام كلمته، لا يشك لحظة وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه والتأكد من النجاة، وإن كان لا يدري كيف تكون، فهي لا بد كائنة.

لن نكون مُدْرَكين، لن نكون هالكين، لن نكون ضائعين.. يقولها بالجزم والتأكيد واليقين.

وينبثق الشعاع المنير في ليل اليأس والكرب.

* ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ

كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٧].

* ومن المبشرات في القرآن: معية الله للمؤمنين وولايته ووعده بإنجاء المؤمنين ونصرهم والدفاع عنهم:

من كان اللَّه معه فمن عليه؟!

* قال تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩].

من وجد اللَّه فماذا فقد! ومن فقد اللَّه فماذا وجد؟! ما لأحدٍ باللَّه من طاقة معية اللَّه الخاصة لعباده الصادقين وهي: معية النصر والتأييد والعون.

* قالها رسول اللَّه ﷺ لصاحبه أبي بكر الصديق: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

* وقال تعالى: ﴿فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

* وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

* وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

* وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦].

* وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

* وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فالصالحون في صحبة العلي الجبار القادر القهار وهو لهم نصير حاضر معهم يدافع عنهم ليس هناك إلا حماية اللَّه، وإلاّ حِماه، وإلاّ ركنه القوي الأمين.

وهذه الحقيقة الضخمة ثابتة في نفوس المؤمنين، وهم بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقهم، داسوا بها على كبرياء الجبابرة في الأرض، ودكُّوا بها المعاقل والحصون.

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس، وعمرت كل قلب، واختلطت بالدم، وجرت معه في العروق.

معية اللَّه هي المعية، وولاية اللَّه وحدها هي الولاية، وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل.. إنها العنكبوت.. وما تملك من التوى ليست سوى خيوط العنكبوت ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] عنكبوت تحتمي بخيوط العنكبوت!.

* اللّه ولي الذين آمنوا:

* قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

ومن كان اللَّه مولاه وناصره فحسبه، وفيه الكفاية والغناء، ومن لم يكن اللَّه مولاه فلا مولى له، ولو اتخذ الإنس والجن كلهم أولياء، فهو في النهاية مضيّع عاجز ولو تجمعت له كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التي يعرفها الناس.

قديمًا قالوها في أحد: اعل هبل، فأتاهم نداء الإيمان: اللَّه أعلى وأجلُّ. قديمًا نعقوا بها: لنا العزى ولا عزى لكم، وأجابهم نداء الإيمان: اللَّه مولانا ولا مولى لكم.

* ويدافع عنهم:

* قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

ومن يدافع اللَّه عنه فهو ممنوع حتمًا من عدوه، وظاهر حتمًا على عدوه، فماذا بعد هذا الخير الثمين؟!

* وهو ناصرهم:

* قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

سبحان من أوجب على نفسه نصر المؤمنين! وجعله لهم حقًّا، فضلاً وكرمًا، وأكده لهم في هذه الصيغة الجازمة، وهو أصدق القائلين وهو القوي العزيز الجبار المتكبر القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير لا

تردّ إرادته، ولا تتخلّف سنته، وناموسه يحكم الوجود.

وقد يبطئ النصر أحيانًا ـ في تقدير البشر ـ لأنهم يحسبون الأمور بغير حساب اللَّه، ويقدرون الأحوال لا كما يقدرها اللَّه، واللَّه هو الحكيم الخبير، يصدق وعده في الوقت الذي يريده ويعلمه وفق مشيئته وسنته، وقد تتكشف حكمة توقيته وتقديره للبشر وقد لا تتكشف، ولكن إرادته هي الخير، وتوقيته هو الصحيح، ووعده القاطع واقع عن يقين، يرتقبه الصابرون واثقين مطمئنين.

* وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ ـ ٤١].

✍ وعد اللَّه مؤكد وثيق متحقق لا يتخلف.. ولكن للنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن اللَّه به بعد استيفاء أسبابه وأداء ثمنه، وتهيؤ الجو حوله لاستقباله واستبقائه فلا يعطى لأحد جزافًا ولا محاباة، ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه.

✍ والأمة التي تقوم على دعوة اللَّه في حاجة إلى حشد كل قواها، وتوفر كل استعدادها، وتجمع كل طاقاتها، كي يكمل نضجها، وتتهيأ لحمل الأمانة الضخمة والقيام عليها.

والنصر السريع الذي لا يكلف عناء، والذي يتنزل هينًا لينًا على القاعدين المستريحين، يعطل تلك الطاقات عن الظهور؛ لأنه لا يحفزها ولا يدعوها.

✍ والنصر السريع الهين اللين يسهل فقدانه وضياعه. أولاً لأنه رخيص الثمن لم تبذل فيه تضحيات عزيزة، وثانيًا لأن الذين نالوه لم تدرب قواهم على الاحتفاظ به ولم تشحذ طاقاتهم وتحشد لكسبه فهي لا تتحفز ولا تحتشد للدفاع عنه.

✍ وقد يبطئ النصر لأن بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكًا لعدم قدرتها على حمايته طويلاً.

✍ وقد يبطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليًا، لا تبذله هيّنًا رخيصًا في سبيل اللَّه.

✍ وقد يبطئ النصر حتى تجرب الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من اللَّه لا تكفل النصر، إنما يتنزل النصر من عند اللَّه عندما تبذل آخر ما في طوقها، ثم تكل الأمر بعدها إلى اللَّه وتزيد صلتها باللَّه حتى تستقيم على النهج بعد النصر عندما يتأذن به اللَّه فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل الذي نصرها اللَّه به.

✍ وقد يبطئ النصر لأن الأمة المؤمنة لم تتجرد بعدُ في بذلها للَّه ولدعوته.

✍ وقد يبطئ النصر لأن في الشر التي تكافحه الأمة المؤمنة بقية من خير، يريد اللَّه أن يجرد الشر منها ليتمحض خالصًا، ويذهب وحده هالكًا، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار!

✍ وقد يبطئ النصر لأن الباطل الذي تحاربه الأمة المؤمنة لم ينكشف

زيفه للناس تمامًا، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له أنصارًا من المخدوعين فيه، فتظل له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة، فيشاء اللَّه أن يبقى الباطل حتى ينكشف عاريًا للناس، ويذهب غير مأسوف عليه من ذي بقية!

✍ وقد يبطئ النصر لأن البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل.

✍ فيبطئ حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقباله ولاستبقائه ولكنه آت ﴿ **بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الروم: ٥ - ٦].

* وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الروم: ٤٧].

❑ قال ابن كثير: «أي حق أحقّه على نفسه الكريمة تكرمًا منه وتفضلاً كقوله تعالى: ﴿ **كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ** ﴾».

سبحان الذي أوجب على نفسه تصر المؤمنين؛ وجعله لهم حقًّا، فضلاً وكرمًا، وأكّده لهم في هذه الصيغة الجازمة التي لا تحتمل شكًّا ولا ريبًا.

وكيف والقائل هو اللَّه القوي العزيز الجبار المتكبر، القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير؟ يقولها سبحانه وإرادته لا تردّ، وسنته لا تتخلّف، وناموسه يحكم الوجود.

* وقال تعالى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ**

خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

إن هذا السؤال من الرسول ﷺ، والمؤمنين الذين آمنوا باللَّه «متى نصر اللَّـه؟» ليصوّر مدى المحنة التـي تزلزل مثل هذه القلـوب الموصولة المطمئنة الموقـنة، ولن تكون إلاّ محنة فوق الوصف، تُلـقي ظلالها على مثل هاتـيك القلوب، فتـبعث منها ذلـك السؤال المكروب: «متـى نصر اللَّه؟».

وعندما تثـبت القلوب على مثـل هذه المحنة المزلزلة.. عنـدئذ تتم كلمة اللَّه، ويجيء النصر من اللَّه ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

✍ إنه مدّخر لمن يـستحقونه، ولن يسـتحقه إلا الذين يثبـتون حتى النهاية.. الذين يثبتون على البـأساء والضراء، الذين يصمدون للزلزلة، الذين لا يحنون رؤوسـهم للعاصفة، الذين يستيـقنون أن لا نصر إلا من اللَّه، وعندمـا يشاء اللَّه، حتى حين تبـلغ المحنة ذروتها، فهم يـتطلعون فحسـب إلى «نصر اللَّـه». بهذا يستـحق المؤمنـون النصر، بعـد الجهاد والامتحان، بعد الصبر والثبات، والتجرد للَّه وحده، والشعور به وحده، وإغفال كل ما سواه وكل من سواه.

✍ إن الصراع والصبر عليه يهب النفوس قوة، ويرفعها على ذواتها، ويطهرها من بوتقة الألم، فيصفو عنصرها ويضيء، ويهب العقيدة عمقًا وقوة وحـيوية، فتـتلألأ حتـى في أعين أعدائـها وخصـومها، وعنـدئذ يدخلون فـي دين اللَّه أفواجًا كما وقـع، وكما يقع في كل قـضية حق، يلقى أصحـابها ما يلقون في أول الطـريق، حتى إذا ثبتوا للمـحنة انحار

إليهم من كانوا يحاربونهم، وناصرهم أشد المناوئين وأكبر المعاندين..

✍ على أنه ـ حتى إذا لم يقع هذا ـ يقع ما هو أعظم منه في حقيقته، يقع أن ترتفع أرواح أصحاب الدعوة على كل قوى الأرض وشرورها وفتنتها، وأن تنطلق من إسار الحرص على الدعة والراحة، والحرص على الحياة نفسها في النهاية.. وهذا الانطلاق كسب للبشرية كلها، وكسب للأرواح التي تصل إليه عن طريق الاستعلاء، كسب يرجح جميع الآلام وجميع البأساء والضراء التي يعانيها المؤمنون، المؤتمنون على راية اللَّه وأمانته ودينه وشريعته.

هذا هو الطريق: إيمان وجهاد.. ومحنة وابتلاء.. وصبر وثبات.. وتوجه إلى اللَّه وحده.. ثم يجيء النصر ـ ثم يجيء النعيم.

* وقال تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾ [يوسف: ١١٠].

❑ قال الشيخ محمد نسيب الرفاعي في كتابه «تيسير العليّ القدير لاختصار تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥): «يذكر تعالى أن نصره رسله صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال وانتظار الفرج من اللَّه في أحوج الأوقات كقوله تعالى: ﴿**وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ الآية، وفي قوله تعالى: ﴿**كذبوا**﴾ قراءتان: إحداهما بالتشديد ﴿**قد كُذِّبوا**﴾، وكذلك كانت عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ تقرؤها، والأخرى بالتخفيف، وفيه أيضًا روايتان عن ابن عباس، ورواية ابن مسعود، وقد أنكرت ذلك عائشة على مَن فسّرها بالتخفيف، وانتصر لها ابن جرير فقد روى

البخاري عن عروة ابن الزبير عن عائشة أنها قالت له وهو يسألها عن قوله اللَّه تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ...﴾، قال: قلت: أكُذِّبوا أم كُذِبوا؟ قالت عائشة: كذِّبوا، قلت: فقد استيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو الظن؟ قالت: أجل ـ لعمري ـ لقد استيقنوا بذلك، فقلت لها: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ قالت: معاذ اللَّه! لم تكن الرسل تظن ذلك بربها. قلت: فما هذا الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذي آمنوا بربهم وصدّقوهم فطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذّبوهم، جاءهم نصر اللَّه عند ذلك.

وحدثنا أبو اليمان، أنبأنا شعبة عن الزهري قال: أخبرنا عروة: فقلت لها: لعلها قد كُذِبوا مخفّفة؟ قالت: معاذ اللَّه!.

وقال ابن جريج: عن عروة عن عائشة أنها خالفت ـ القول بالتخفيف ـ وأبته، وقالت: ما وعد اللَّه محمداً ﷺ إلا قد علم أنه سيكون حتى مات، ولكنه لم يزل البلاء بالرسل حتى ظنوا أن من معهم من المؤمنين قد كذبوهم. قال ابن أبي مليكة من حديث عروة: كانت عائشة تقرؤها ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ مثقّلة من التكذيب، وانتصر لعائشة ابن جرير، ووجّه المشهور عن الجمهور، وزيّف القول الآخر بالكلية، وردّه وأباه ولم يقبله ولا ارتضاه. واللَّه تعالى أعلم».

يا له من كرب مزلزل وحرج وضيق وهول فوق ما يطيقه بشر في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب.. يجيء النصر كاملاً حاسمًا فاصلاً.

تلك سنة اللَّه في الدعوات، لا بد من الشدائد، ولا بد من الكروب حتى لا تبقى بقية من جهد، ثم يجيء النصر بعد اليأس من كل أسبابه الظاهرة التي يتعلق بها الناس، يجيء النصر من عند اللَّه، ويحلّ بأس اللَّه بالمجرمين مدمرًا ماحقًا.

ذلك لكي لا يكون النصر رخيصًا فتكون الدعوات هَزْلاً، فلو كان النصر رخيصًا لقام في كل يوم دعيّ بدعوة لا تكلفه شيئًا، أو تكلّفه القليل. ودعوات الحق لا يجوز أن تكون عبثًا ولا لعبًا، والأدعياء لا يتحملون تكاليف الدعوة؛ لذلك يشفقون أن يدّعوها، فإذا ادّعوها عجزوا عن حملها وطرحوها، وتبين الحق من الباطل على محك الشدائد التي لا يصمد لها إلا الواثقون الصادقون، الذين لا يتخلون عن دعوة اللَّه.

والصفوة المختارة هي التي تؤثر حقيقة هذا الدين على الراحة والسلامة، وعلى كل متاع هذه الحياة الدنيا..

* وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

❑ قال ابن كثير: «هذا حق أوجبه اللَّه تعالى على نفسه الكريمة كقوله عز وجل ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

ينجي اللَّه المؤمنين.. ينجيهم مثلما نجّى إبراهيم من النيران، وموسى وهو على ثبج البحر وفي حجر فرعون، ويونس وهو في بطن الحوت.

تبقى البذرة المؤمنة وتنبت وتنجو بعد كل إيذاء وكل خطر، وبعد

كل تكـذيب، وكل تعذيـب ففي بقائهـا بقاء الحياة فـي طهرها ونقـائها وجوهرها.

ولكن معنى الحياة
وجوهرها أروع
تجف لعمقها الأدمع
وذلك أن عيون الحياة
تظل تفجّر عبر القفار
وعبر دروب الضياع
وعبر الضنى والدمار
وعبر صنوف الصراع
وعبر.. وعبر.. وعبر
تظلّ تفجّر معنى الحياة

* * *

لذلك كان الربيع وقطر الندى
يعودان بعد الشتاء
وبعد ظلام بعيد المدى
وبعد الأسى والعناء
وبعد.. وبعد.. وبعد
يعودان رغم مغيب السماء
فيشرق نور القمر
على جنبات المساء
وينساب روح عميق الجوى.. عبقريّ الصفاء

وتفنى الغيوم
تبدّد عند حدود الفضاء
وبعد رياح الجليد
تضوّع عطر الزّهَر
وتبعث أنفاسها من جديد
تعانق خضر الشجر

* * *

من الليل ينساب ضوء الشروق
ويركض خلف الظلام
ليجلوه عن مسرح الكائنات
ومن باكيات الغمام
تشق الورود الطريق
فيزهر درب الحياة!!

* * *

* مكر العزيز القهار بالكافرين الضعاف المهازيل:

ومن المبشرات في القرآن بنصر الإسلام وعد اللَّه بإحباط كيد الكافرين ومكرهم. ويا ذلة مَن يمكر اللَّه به!

* قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

أين هؤلاء البشر الضعاف المهازيل من قدرة اللَّه الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط؟!

* وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٧].

إيناس وودٌّ ونسائم رحمة تنسم على القلوب وتمسح على الكرب والشدة والعناء والكيد فتنمحي كلها وتذوب ويبقى العطف الودود، هؤلاء الذين خُلقوا من ماء مهين دافق يكيدون ويكيد بهم رب العالمين، القادر القاهر، رب السماء والطارق، يمهلهم الحكيم قليلاً.. والحكمة وراء الإمهال.

يكيدون كيداً، ويكيد اللَّه كيدًا، يمكرون ويمكر اللَّه.

مثلما مكر بفرعون وربّى موسى في حجره ليكون هلاكه على يديه..

وكذا تُربى الصحوة الإسلامية في حجر الصليبية العالمية واليهودية.. يكيدون لها واللَّه مطلع عليهم يمكر بهم من حيث لا يعلمون.

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

هذا شأن الكافرين دائمًا في كل أرض وفي كل حين ينفق الكافرون أموالهم ويبذلون جهودهم في الصد عن سبيل اللَّه، وفي إقامة العقبات في وجه هذا الدين، وفي حرب العصبة المسلمة، وستعود عليهم أموالهم بالحسرة وتضيع، ويُغلبوا هم وينتصر الحق في هذه الدنيا.

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ

مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [المجادلة: ٥].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ فِي الأَذَلِّينَ ﴾ [المجادلة: ٢٠].

هؤلاء المجادلون المشاقون المتبجحون لهم الكبت والقهر والذل، كتب اللَّه عليهم الذلة والهزيمة وسيذهبون إلى مزابل التاريخ وسيتبعون في هذه الدنيا بلعنات الصالحين وهم يوم القيامة من المقبوحين.

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: ٨١ - ٨٢].

* مصارع الأحزاب الغابرين:

* قال تعالى: ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ [ص: ١١].

ما يزيدون على أن يكونوا جنداً مهزومًا ملقى هنالك بعيداً، لا يقرب من تصريف هذا المُلك وتدبير خزائن ملك السماوات والأرض هم منكرون هينو الشأن، الهزيمة صفة لازمة لهم، لاصقة بهم، مركبة في كيانهم! ﴿ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾ المختلفة الاتجاهات والأهواء مهما تبلغ قوتهم، ويتطاول بطشهم فهم عجزة ضعاف، مهازيل لا يملكون مثقال ذرة في ملك اللَّه، قضى اللَّه بهزيمتهم واندحارهم واندثارهم.

* وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣].

قال ابن كثير: «قل يا محمد، للكافرين: ستغلبون في الدنيا، وتحشرون يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد.

يعز اللَّه المؤمنين ويذل الكافرين وفي ذلك عبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم اللَّه وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

* وقال تعالى: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**﴾ [الرعد: ١٧].

قال ابن كثير: « اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه...

﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ**﴾ أي: إذا اجتمعا، لا ثبات للباطل ولا دوام له».

ذلك مثل الحق والباطل في هذه الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابيًا طافيًا ولكنه بعدُ زبد، أو خبث، ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحًا لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئًا ساكنًا. وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي السارب الساكن الهادئ الذي يحمل الخير والحياة وكالمعدن الصريح، ينفع الناس، ﴿**كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ**﴾ وكذلك يقرر مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات، ومصائر الأعمال والأقوال.

ولله در القائل:

زبد البحر أنت أنت قذى البحر ... وما أنت دُرَّهُ والجواهرْ
إن تكن قد كسوت من صفحة الـ ... ـماء وهوّمت بالعباب الزاخرْ
بعض ريحٍ أتى بوفْرك يوما ... بعض ريحٍ يزيل ذاك الوافرْ
إنّ ما ترى تجارة بغي ... ذل في عصرها نقاء الحرائر
وخطاب علا بثغر كريهٍ ... ثم دانت له جميع المنابر

* ومن المبشرات:

* قول اللّه عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٥٤].

إن اختيار الكريم المنان للعصبة المؤمنة لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين اللّه في الأرض، وتمكين سلطانه في حياة البشر، وتحكيم منهجه، وتنفيذ شريعته، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج ـ إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر فضل عظيم من اللّه ومِنّة كبيرة، فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنّة.. فهو وذاك، واللّه غني عنه وعن العالمين، واللّه يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم والعطاء الواسع.

* وقال تعالى: ﴿ **...وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ** ﴾ [محمد: ٣٨].

إن اختيار اللَّه للدعاة وللمؤمنين لحمل دعوته تكريم ومَنٌّ وعطاء، لأنها عزيزة شريفة كريمة رفيعة، لا يتصدى بها لمن يعرض عنها، ومن يعرض عن هذا التكريم موكوس مطموس منكوس، هي فقط لمن يعرف كرامتها ويطلب التطهر بها ويحمل لواءها.

فإذا لم يحاول المرء أن يكون أهلاً لهذا الفضل، وإذا لم ينهض بتكاليف هذه المكانة، وإذا لم يدرك قيمة ما أعطي فيهون عليه كل ما عداه.. فإن اللَّه يسترد ما وهب، ويختار آخرين لهذه المنّة ممن يقدّر فضل اللَّه.

* ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾.

وإنها لنذارة رهيبة لمن ذاق حلاوة الإيمان، وأحس بكرامته على اللَّه، وبمقامه في هذا الكون، وهو يحمل هذا السر الإلهي العظيم.. ويمشي في الأرض بسلطان اللَّه في قلبه، ونور اللَّه في كيانه، ويذهب ويجيء وعليه شارة مولاه.. وما يطيق الحياة وما يطعمها إنسان عرف حقيقة الإيمان وعاش بها ثم تسلب منه، ويطرد من الكَنَف، وتوصد دونه الأبواب.. لا بل إن الحياة لتغدو جحيمًا لا يطاق عند من يتصل بربه ثم يطبق دونه الحجاب.

❑ يقول ابن كثير: « يقول تعالى مخبرًا عن قدرته العظيمة: إنه من تولّى عن نصرة دينه، وإقامة شريعته بأن اللَّه سيستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة وأقوم سبيلاً»[1].

وللَّه ما أحلى صفات هذه العصبة التي ستحمل دين اللَّه:

الحب والرضى والمتبادل هو الصلة بينهم وبين اللَّه عز وجل، وهذا

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٩ ـ ٧٠) طبعة الحلبي.

الحب أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره.

✍ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.. وأخوة ترفع الحواجز فكلهم لإخوانهم إلا ما حرمه اللَّه ورسوله ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وهي العزة للعقيدة، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين.. إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير، وأن دورهم هو أن يطوّعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم، ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين، وما عند الآخرين! ثم هي الثقة بغلبة دين اللَّه على الهوى، وبغلبة قوة اللَّه على تلك القوى فهم الأعلون.

✍ وهم يجاهدون في سبيل اللَّه؛ لا في سبيل أنفسهم، ولا في سبيل قومهم، ولا في سبيل وطنهم، ولا في سبيل جنسهم «لا يردهم عما هم فيه من طاعة اللَّه، وإقامة الحدود وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصدهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل»[1]. فيم الخوف من لوم الناس، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟ ومن يستمد قوته وعزته من اللَّه، فما يبالي ما يقول الناس وما يفعلون. كائنًا هولاء الناس ما كانوا، وكائنًا واقع هؤلاء الناس ما كان.

* إنه الحق؛ ومن المبشرات:

* قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٩ ـ ٧٠) طبعة الحلبي.

﴿أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

إنه وعد اللَّه لعباده ـ بني الإنسان ـ أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون، ومن خفايا أنفسهم على السواء. حتى يتبين لهم أنه الحق.. هذا الدين، وهذا الكتاب، وهذا القول ومن أصدق من اللَّه حديثًا؟

ووعد اللَّه ما يزال قائمًا..

والشطر الأخير من الوعد قد بانت طلائعه منذ مطلع هذا القرن بشكل ملحوظ. فموكب الإيمان يتجمّع من فجاج شتى. وعن طريق العلم المادي وحده يفد كثيرون! وهناك أفواج وأفواج تتجمّع من بعيد. ذلك على الرغم من موجة الإلحاد التي كادت تغمر هذا الكوكب في الماضي، ولكن هذه الموجة تنحسر الآن. تنحسر ـ على الرغم من جميع الظواهر المخالفة ـ وقد لا يتم تمام هذا القرن العشرين الذي نحن فيه، حتى يتم انحسارها أو يكاد إن شاء اللَّه، وحتى يحق وعد اللَّه الذي لا بد أن يكون، وقال اللَّه تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ: ٦].

ها هم كبار رجال العلم في كل فن يخرون للأذقان سجدًا لربهم ويعلمون أن القرآن هو الحق.. وإليك نماذج منهم يجمعون على أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من البشر.

❑ البروفيسور كيث مور صاحب كتاب «أطوار خلق الإنسان»، وهذا الكتاب من أهم المراجع في «التشريح وعلم الأجنة»، وهو مترجم إلى ثماني لغات. واختير هذا الكتاب من قِبل لجنة في أمريكا كأحسن كتاب في العالم.

قال الأستاذ كيث مور: التقسيم الذي جاء في القرآن عن أطوار الجنين، والذي يعتمد على الأشكال المتميزة الجلية: النطفة ـ العلقة ـ المضغة ـ العظام ـ كساء العظام باللحم ـ النشأة خلقًا آخر: «هي تقسيمات علمية دقيقة، وتقسيمات سهلة ومفهومة ونافعة.

وقال: «لقد كشفت الدراسات المكثفة للقرآن والحديث خلال السنوات الأربع الأخيرة جهاز تصنيف الأجنة البشرية الذي يعتبر مدهشًا حيث إنه سجل في القرن السابع بعد الميلاد فيما يتعلق بما هو معلوم من تاريخ علم الأجنة لم يكن يُعرف شيء عن تطور، وتصنيف الأجنة البشرية حتى حلول القرن العشرين، ولهذا السبب فإن أوصاف الأجنة البشرية في القرآن الكريم لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع. الاستنتاج الوحيد المعقول هو أن هذه الأوصاف قد أوحيت إلى محمد ﷺ من اللَّه، إذ ما كان له أن يعرف مثل هذه التفاصيل؛ لأنه كان أميًّا».

«ولقد نشرت بعض الصحف الكندية كثيرًا من تصريحات البروفيسور كيث مور. وأخيرًا قدّم كيث مور ثلاث حلقات في التليفزيون الكندي عن التوافق بين ما ذكره القرآن قبل ١٤٠٠ عام، وما كشف عنه العلم في هذا الزمان، وعلى أثر هذا وُجِّه له هذا السؤال: يا أستاذ مور معنى ذلك أنك تؤمن بأن القرآن كلام اللَّه؟

فأجاب: لم أجد صعوبة في قبول هذا.

فقيل له: كيف تؤمن بمحمد وأنت تؤمن بالمسيح؟

فأجاب: أعتقد أنهما من مدرسة واحدة[1].

(١) انظر كتاب «إنه الحق» كتاب هيئة الإعجاز العلمي من ص(١١ ـ ٢٩).

❑ وفي المؤتمر الطبي السعودي الثامن بالرياض يقف البروفيسور تاجاتات ـ رئيس قسم التشريح والأجنة في جامعة شاينج ماي بتايلاند والآن عميد كلية الطب بها ـ ويقول: «إنني أومن أن كل شيء ذُكر في القرآن منذ ١٤٠٠ سنة لا بد أن يكون صحيحًا، ويمكن إثباته بالوسائل العلمية، وحيث إن النبي ﷺ لم يكن يستطيع القراءة والكتابة فلا بد أن محمداً ﷺ جاء بهذه الحقيقة، لقد بُعث إليه هذا عن طريق وحي من خالق عليم بكل شيء، هذا الخالق لا بد أن يكون هو اللَّه، ولذلك فإنني أعتقد أنه حان الوقت لأن أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه»[1].

❑ وقال البروفيسور كرونر ـ وهو من أشهر علماء العالم في الجيولوجيا ـ: «إن كثيرًا من القضايا المعروضة في ذلك الوقت لم يكن من الممكن إثباتها، ولكن الوسائل العلمية الحديثة الآن في وضع تستطيع فيه أن تثبت ما قاله محمد ﷺ منذ ١٤٠٠ سنة»[2]، ويعني بذلك قول اللَّه تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ...**﴾ [الأنبياء: ٣٠].

❑ والبروفيسور هاي وهو من أشهر علماء البحار في أمريكا يسأل عن الحواجز المائية بين البحار المختلفة، والحواجز بين مياه البحار والأنهار، وقول اللَّه تعالى: ﴿**مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ**﴾، فيقول: «أعتقد أنه لا بد أن يكون من اللَّه».

---

(١) «إنه الحق» ص(٣٥).

(٢) «إنه الحق» ص(٣٧).

❑ والبروفيسور برسود ـ رئيس قسم التشريح بكندا ـ يقول عن حديث رسول الله ﷺ: «إنني لا أجد صعوبة في أن أوافق في عقلي أن هذا الإلهام إلهي أو وحي قاده إلى عرض القضايا»[١].

❑ وقال البروفيسور بالمار ـ وهو من أشهر علماء الجيولوجيا في الولايات المتحدة الأمريكية ـ: «إن الله قد أرسل من خلال محمد ﷺ مقادير ضئيلة من علمه اكتشفناها فقط في الأزمنة الحديثة»[٢].

❑ والبروفيسور درجا برساد راو ـ أستاذ علم جيولوجيا البحار ـ لما سمع المعاني المتعلقة بقول الله عز وجل: ﴿**أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ [النور: ٤٠]، ولما استمع إلى الإعجاز العلمي المتعلق بهذه الآية قال: «من الصعب أن نفترض أن هذا النوع من المعرفة كان موجودًا في ذلك الوقت منذ ١٤٠٠ سنة هجرية، ولذلك فمن المؤكد أن هذا ليس علمًا بشريًّا بسيطًا لا يستطيع الإنسان العادي أن يشرح هذه الظواهر بذلك القدر من التفصيل، ولذلك فقد فكرت في قوة خارقة للطبيعة خارج الإنسان، لقد جاءت المعلومات من مصدر خارق للطبيعة»[٣].

❑ ونختم بما قاله العالم الهندي الدكتور عناية الله المشرقيّ عن السير جيمس جينز ـ الفلكي المشهور والأستاذ بجامعة كمبردج ـ لما قرأ

(١) «إنه الحق» ص(٧٠).
(٢) «إنه الحق» ص(٨١).
(٣) «إنه الحق» ص(١٠٨).

عليه قول اللَّه عز وجل: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧ ـ ٢٨]، فصرخ السير جيمس قائلاً: «ماذا قلت؟! إنما يخشى اللَّه من عباده العلماء؟! مدهش! وغريب، وعجيب جداً!! إن الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب اللَّه موحى من عند اللَّه».

ويستطرد السير قائلاً: «لقد كان «محمد» أمياً، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن «اللَّه» هو الذي أخبره بهذا السر.. مدهش..! وغريب وعجيب جداً!!»ا.هـ[1].

والمئات بل الآلاف من الوقائع لسجود كبار العلماء للَّه عز وجل، واعترافهم بالقرآن كتاب اللَّه المعجز وبرسول اللَّه ﷺ تبشر بأن المستقبل لهذا الدين.

* أخي:

غداً سيشرق فجر الإسلام حاملاً معه أغلى الأماني:

أمنيات عطّرت حقل الرجا ... فتمطّى الزهر في تحنانه
ألهمتني من معانيها هدى ... زاد روحي اليوم من إيقانه
وبقلبي عنفوان جارف ... يحمل العزة من إيمانه

(١) «الإسلام يتحدى» لوحيد الدين خان.

وبه النـــــور كدفّاق السنـــا ... يحمـــــــل الخير إلى وديانــه
ويقيـن شـــامخ نفـحتـــــهُ ... الصبـــــح ومن نشـــــوانه
عـاد ما غاب بأذيـــــال المســـا ... وتجـــلّى العيـــــد في أزمـــانه

* * *

المبشّرات
في
السُّنَّة المطهَّرة

المبشِّرَات في السُّنَّة المُطَهَّـرة

✍ بأبي أنـت وأمي يا رسول اللَّـه . . جرعة من نبـعك السلسـبيل تروي العقل والقلـب وتبث الأمل في القلوب اليائسة والأنـفس البائسة، ولكم ربيّت أصحابك على الأمل واليـقين في الغد المشرق والفجر القادم لأمتنا . . وللَّه درها الأحاديث التي عطرّت أفئدتنا بذكر المبشرات .

● عن خبـاب بن الأرت أنه قال: أتيـت النبي ﷺ وهو مـتوسّد بردة، وهو فـي ظل الكعبة ـ وقـد لقينا مـن المشركين شدة ـ فقـلت: يا رسول اللَّه ألا تدعو اللَّه لنا، فقعد وهو مُحمر وجهه فقال: «**لقد كـان من قبلكم ليمـشط بمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم أو عصـب ما يصرفه ذلك عن دينـه، وليتمـن اللَّه هـذا الأمر حتى يـسير الراكـب من صنـعاء إلى حضـرموت لا يخاف إلا اللَّه**»[1] .

● وفي رواية قال: «**قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يـؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نـصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحـمه وعظمه ما يصـده ذلك عن دينه، واللَّـه ليتمنّ اللَّه تـعالى هذا الأمر حتـى يسير الراكب مـن صنعاء إلى حضـرموت فلا يخاف إلا اللَّـه والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون**» .

قال الـشيخ الألبـاني ـ رحمه الـلَّه ـ في«الـسلسلـة الصحيـحة» (١/ ٦):

* قال اللَّـه عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ**

(١) رواه البخاري (٧/ ٢٠٢) في: «مناقب الأنصار»، وأحمد (٥/ ١٠٩).

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾.

● تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق في عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين، وليس كذلك، فالذي تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق، كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ بقوله: «**لا يذهب الليل والنهار حتى تُعبد اللات والعزّى**، فقالت عائشة: يا رسول اللَّه إن كنت لأظن حين أنزل اللَّه ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ أن ذلك تامًّا؛ **قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء اللَّه**»[1].

١ـ مبشرات من السنة بانتشار الإسلام في أرجاء البسيطة:

● عن تميم الداري ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**ليبلغنّ هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك اللَّه بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين بعزّ عزيز، أو بذل ذليل، عزًّا يعزّ اللَّه به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر**»[2].

✍ وبيت مدر هي: البيوت التي من حجر وهي بيوت الحواضر،

---

(١) رواه مسلم (١٦/ ٣٢) كتاب «الفتن وأشراط الساعة»، والحاكم (٤/ ٤٤٦، ٤٤٧، ٥٤٩).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٠٣)، وابن حبان في«صحيحه» (١٦٣١، ١٦٣٢)، والحاكم (٤/ ٤٣٠ـ ٤٣١)، وقال صحيح على شرط الشيخين، وأبو عروبة في «المنتقى من الطبقات»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/ ١٤): رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه الألباني في«السلسلة الصحيحة» رقم(١) وفي«تحذير الساجد» (صـ ١١٩).

وبيت وبـر هي: بيوت البـوادي التي من وبر وشـعر سيدخلـها الإسلام جميعًا. . . وصل الإسلام إلى أرجاء البسيطة كلها، وإنا ننتظر المزيد، وما ذلك على اللَّه بعزيز.

٢ـ ومن المبشرات ورود الأحاديث التي تدل على اتساع ملك المسلمين في المشارق والمغارب:

● فعن ثوبان ـ رضي اللَّه عـنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّـه زَوى[1] لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زُوِي لي منها**»[2].

ولقد وصل ملك المسلمين إلى سانس جنوب باريس، وإلى سيبيريا وجبال الصين، وأندونـيسيا وجزر الملايو، والفلبين ووسـط أفريقيا، وهو بالغ بإذن اللَّه ما هو أوسع من ذلك مـما قد لا يتصوره يائس متواكل هدّه الواقع يرضى بالجحور وكأنه قد سئم حياة النسور.

٣ـ ومن المبشرات الواردة في السنة فتح روما إن شاء الله:

● عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد اللَّه بن عمرو بن العاص، وسُئل أي المدينتين تُفتح أولاً القسطنطينـية أو رومية؟ فدعا عبد اللَّه بصندوق له حلق، قال: فـأخرج منه كتابًـا قال: فقال عبد الـلَّه: بينما نـحن حول

---

(١) زوى: أي جمع وضمّ.

(٢) رواه مسلم (٨/ ١٧١)، وأبـو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢/ ٢٧) وصححـه، وابن ماجه (٢٩٥٢)، وأحمد (٥/ ٢٧٨، ٢٨٤) من حديث ثوبان، وأحمد أيضًا من حديث شداد بن أوس إن كان محفوظًا.

رسول اللَّه ﷺ نكتب، إذ سئل رسول اللَّه ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً، أقسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**مدينة هرقل تفتح أولاً. يعني قسطنطينية**»(١).

و«رومية» هي: روما كما في معجم البلدان، وهي عاصمة إيطاليا اليوم.

❑ وقد تحقق الفتح الأول على يد السلطان العثماني البطل: محمد الفاتح وهو ابن ثلاث وعشرين سنة في يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ، ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي ﷺ وسيتحقق الفتح الثاني بإذن اللَّه ولابد، ولتعلمن نبأه بعد حين.

❑ قال الشيخ الألباني: «ولا شك أيضًا أن تحقق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة، وهذا ما يبشرنا به ﷺ»(٢).

٤ـ عودة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة إن شاء الله:

● عن حذيفة بن اليمان ـ رضي اللَّه عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**تكون النبوة فيكم ما شاء اللَّه أن تكون، ثم يرفعها اللَّه إذا شاء أن يرفعها، ثم**

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد (٢/ ١٧٦)، والدارمي(١/ ١٢٦)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٧/ ١٥٣/ ٢)، وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن»، والحاكم(٣/ ٤٢٢، ٤/ ٥٠٨) وعبد الغني المقدسي في «كتاب العلم» (٢/ ٣٠/ ١) وقال: حديث حسن الإسناد، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي وهو كما قالا.

(٢) «السلسلة الصحيحة» (١/ ٨).

تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء اللَّه أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًا فتكون ما شاء اللَّه أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء اللَّه أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء اللَّه أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت»[1].

٥ـ ومن المبشرات عودة الرخاء والأمن إلى أرض العرب:

● عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا»[2].

قال الشيخ الألباني ـ رحمه اللَّه ـ:

«وقد بدأت تباشير هذا الحديث تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العرب بما أفاض اللَّه عليها من خيرات وبركات وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء، وهناك فكرة بجرّ نهر الفرات إلى الجزيرة كما قرأناها في بعض الجرائد المحلية، فلعلها تخرج إلى حيّز

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٤/ ٢٧٣)، ومن طريق أحمد رواه الحافظ العراقي في «محجة القرب إلى محبة العرب» (١٧/ ٢)، وقال: هذا حديث صحيح، ورواه الطيالسي في «مسنده» (٤٣٨)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٨٩): «رواه أحمد والبزار أتم منه، والطبراني ببعضه في «الأوسط» ورجاله ثقات»، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٥).

(٢) رواه مسلم (٣/ ٨٤)، وأحمد (٢/ ٧٠٣ و٤١٧)، والحاكم (٤/ ٤٧٧). جاء في كتاب «إنه الحق» ص(٣٩ ـ ٤١). قال البروفيسور ألفريد كرونر وهو من أشهر علماء العالم في الجيولوجيا ـ لما سُئل هل كانت بلاد العرب بساتين وأنهارًا؟ فأجاب: نعم.

فسُئل: متى كان هذا؟ قال: في العصر الجليدي الذي مرّ بالأرض، إن الجليد يتراكم في القطب الشمالي ثم يزحف نحو الجنوب، فإذا اقترب من جزيرة العرب قربًا نسبيًا طبعًا تغيّر الطقس، وتكون بلاد العرب بساتين وأنهارًا.

فسُئل: وهل ستعود بلاد العرب بساتين وأنهارًا؟ قال: نعم. هذه حقيقة علمية. =

الوجود، وإن غدًا لناظره قريب»[١] .

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال فيفيض، حتى يُهم ربَّ المال من يقبل منه صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي»[٢] .

● وعن حارث بن وهب مرفوعًا: «تصدّقوا، فإنه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها، يقول الرجل: لو جئت بها بالأمس لقبلتها، فأما اليوم فلا حاجة لي بها»[٣] .

● وعن أبي موسى مرفوعًا: «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب! ثم لا يجد أحدًا يأخذها منه»[٤] .

٦ ـ ومن المبشرات ظهور المجددين في كل قرن:

● قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها»[٥] .

= فتعجب منه سائلوه كيف يقول: هذه حقيقة علمية وهي مسألة تتعلق بالمستقبل. وسئل لماذا؟ قال: لأن العصر الجليدي قد بدأ، فهذه الثلوج تزحف من القطب المتجمد الشمالي مرة ثانية نحو الجنوب، وهي في طريقها لتقترب من المناطق القريبة من بلاد العرب.

ثم قال: إن من أدلتنا على ذلك ما تسمعون عنه من العواصف الثلجية التي تضرب في كل شتاء المدن الشمالية في أوربا وأمريكا. هذه من أدلة العلماء على ذلك. لهم أدلة كثيرة أنها حقيقة علمية. ولما علم أن هناك حديث لرسول اللَّه ﷺ عن هذا ـ وهو حديثنا الذي ذكرناه ـ قال: إن هذا لا يمكن أن يكون إلا بوحي .. من أعلى.

(١) «السلسلة الصحيحة» (١/ ١٠).

(٢) متفق عليه: انظر «اللؤلؤ والمرجان» (٥٩٤).

(٣) متفق عليه: انظر «اللؤلؤ والمرجان» (٥٩٢).

(٤) متفق عليه: انظر «اللؤلؤ والمرجان» (٥٩٣).

(٥) صحيح: رواه أبو داود، والحاكم في «المستدرك»، والبيهقي في «المعرفة» عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٨٧٤)، و«السلسلة الصحيحة» رقم (٥٩٩).

❑ قال المناوي: «أي يقيّض لها علـى رأس كل مائة سنة من الهجرة أو غيرها، والمـراد الرأس تقريبًا، رجلاً أو أكـثر يبين السنة مـن البدعة، ويكثر العلم وينصر أهله ويكسر أهل البدعة ويذلهم.

قالوا: ولا يكون إلا عالمًا بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة.

❑ قال ابـن كثير: «قـد ادّعى كل قـوم في إمامـهم أنه المراد بـهذا الحديث، والظاهر أنه يعم جماعة من العلماء من كل طائفة وكل صنف؛ مفسّر ومحدّث وفقيه ونحويّ ولغوي وغيرهم»[1] انتهى.

❑ قال ابن القيم: «ولـولا ضمان اللَّه أن يحفظ دينه، وتـكفله بأن يقيم له من يُجدّد أعلامه ويحيي منه ما أماته المبطلون، وينعش ما أخمله الجاهلـون لهدّمت أركـانه، وتداعى بنـيانه، ولكـن اللَّه ذو فضـل على العالمين»[2].

❑ قال أبو الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي في «عون المعبود شرح سنن أبـي داود»: «المراد من التجديـد إحياء ما اندرس من الـعمل بالـكتـاب والسـنة، والأمـر بمقـتضـاهمـا وإماتـة ما ظـهر مـن البـدع والمحدثات»[3].

❑ قال في «مجالس الأبرار»: وإنما كان التجديد على رأس كل مائة سنة لانخرام العلماء فيه غالبًـا، واندراس السنن، وظهور البدع. فيحتاج حينئذ إلى تجديـد الدين، فيأتي اللَّه تعالى من الخلـق بعوض من السلف إما واحدًا وإما متعددًا. انتهى.

---

(١) «فيض القدير» للمناوي (٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٧٩).

(٣) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (١١/ ٣٩١).

وقال القاري في «المرقاة»: «أي يبيّن السنة من البدعة، ويُكثر العلم ويُعزُّ أهله، ويقمع البدعة ويكسر أهلها».

رزق اللَّه هذه الأمة بجبال مُلئوا خشية وعلموا وجددوا دينها ـ للَّه درهم ـ: عمر بن عبد العزيز، والشافعي، والغزالي، وأحمد بن تيمية، وفي مجال الجهاد نور الدين محمود زنكي، وصلاح الدين الأيوبي.

وفي الحديث في عصرنا محدث أهل الشام الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه اللَّه ـ، وإمام العصر بقية السلف فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه اللَّه ـ

٧ـ ومن المبشرات بقاء الطائفة المنصورة:

● عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، حتى تقوم الساعة**»(١).

● عن المغيرة بن شعبة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر اللَّه وهم ظاهرون**»(٢).

● وعن ثوبان ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر اللَّه، وهم كذلك**»(٣).

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم (٤/ ٤٤٩)، والطيالسي ص(٩) رقم (٣٨)، وعنه الدارمي (٢/ ٢١٣)، والضياء (١٢٠، ١٢١). وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «السلسة الصحيحة» رقم (١٩٥٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٧١٦٤).

(٢) **متفق عليه**.

(٣) **صحيح**: رواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه، عن ثوبان، وكذا رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم.

● وعن معاوية ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر اللَّه، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر اللَّه، وهم ظاهرون على الناس**»(١).

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قوَّامة على أمر اللَّه، لا يضرها من خالفها**»(٢).

● وعن قرة بن إياس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي منصورين، لا يضرهم خذلان من خذلهم، حتى تقوم الساعة**»(٣).

● وعن جابر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمير، تكرمة اللَّه لهذه الأمة**»(٤).

● وعن عمران بن حصين ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين على مَن ناوأهم، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال**»(٥).

---

(١) أخرجه أحمد، والبخاري، ومسلم عن معاوية.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (١/ ٧) عن أبي هريرة، قال الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩٦٢): وهذا سند حسن إن شاء اللَّه تعالى، رجاله رجال الصحيح، غير نصر بن علقمة، وقد وُثِّق.

(٣) أخرجه ابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه» عن قرة بن إياس، وصححه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧١٦٩).

(٤) أخرجه أحمد، ومسلم عن جابر.

(٥) **صحيح**: أخرجه أبو داود (١/ ٣٨٨ ـ ٣٨٩)، والحاكم (٤/ ٤٥٠)، وأحمد (٤/ ٤٢٩، =

● وعن عقبة بن عامر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»**[١].

● وعن عقبة بن عامر ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر اللَّه، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك»**[٢].

● عن سلمة بن نفيل أنه أتى النبي ﷺ فقال: «إني سئمت الخيل، وألقيت السلاح، ووضعت الحرب أوزارها»، قلت: لا قتال، فقال له النبي ﷺ: **«الآن جاء القتال، لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الناس، يزيغ اللَّه قلوب أقوام يقاتلونهم، ويرزقهم اللَّه منهم حتى يأتي أمر اللَّه عز وجل وهم على ذلك، ألا إن عقر دار المؤمنين بالشام، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»**[٣].

وفي رواية أخرى: **«ولا يزال من أمتي أمة يقاتلون على الحق، ويزيغ اللَّه لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة، وحتى يأتي وعد اللَّه»**[٤].

= ٤٣٧)، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٥٩): وهو كما قالا.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم، والحاكم.

(٣) **إسناده حسن**: أخرجه أحمد (٤/ ١٠٤)، وقال الألباني في «الصحيحة» رقم (١٩٦١): وهذا إسناد شامي حسن، رجاله كلهم موثقون.

(٤) **إسناد صحيح على شرط مسلم**: أخرجه النسائي (٢/ ٢١٧ ـ ٢١٨)، وابن حبان (١٦١٧)، وأحمد (٤/ ١٠٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٧/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨)، والحربي في «غريب الحديث»، والطبراني في «الكبير» (٦٣٥٧، ٦٣٥٨، ٦٣٥٩)، عن سلمة بن نفيل، وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٣٥): إسناد صحيح على شرط مسلم.

وهذه الطائفة هم أصحاب الحديث. وهذا قول عبد اللَّه بن المبارك، وعليٍّ بن المديني، وقال أحمد بن حنبل: «إن لم تكن هذه الطائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم. وقال البخاري: يعني أصحاب الحديث، وقال أيضًا: وهم أهل العلم. وللَّه در الخطيب البغدادي حين يقول في كتابه: «شرف أصحاب الحديث»: وقد جعل اللَّه أهله أركان الشريعة، وهدم بهم كل بدعة شنيعة، فهم أمناء اللَّه في خليقته، والواسطة بين النبي ﷺ وأمته، والمجتهدون في حفظ ملته، أنوارهم زاهرة، وفضائلهم سائرة، وآياتهم باهرة، ومذاهبهم ظاهرة، وحججهم قاهرة. وكل فئة تتحيّز إلى هوى ترجع إليه، وتستحسن رأيًا تعكف عليه، سوى أصحاب الحديث، فإن الكتاب عدتهم، والسنة حجتهم، والرسول فئتهم، وإليه نسبتهم، لا يعرّجون على الأهواء، ولا يلتفتون إلى الآراء، يُقبل منهم ما رووا عن الرسول، وهم المأمونون عليه العدول، حفظة الدين وخزنته؛ وأوعية العلم وخزنته، إذا اختُلف في حديث كان إليهم الرجوع، فما حكموا به فهو المقبول المسموع. منهم كل عالم فقيه وإمام رفيع نبيه، وزاهد في قبيلة، ومخصوص بفضيلة» ا.هـ أولئك حزب اللَّه.. ولا تموت أمة هم فيها فلن تخلو الأرض من قائم للَّه بحجة، ولا يزال في هذه الأمة أهل علم يدعون من ضل إلى الهدى، ويُبَصِّرون بنور اللَّه أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هَدوه. ينفون عن كتاب اللَّه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين.

وهذا إن دلّ فإنما يدل على بقاء الخيرية في هذه الأمة وعدم انقطاعها.

● قال رسول اللَّه ﷺ : « **مثل أمتي مثل المطر، لا يُدرَى أوله خير أم آخره**»[١] .

● ولا يعارض هذا حديث رسول اللَّه ﷺ : « **خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم...**»[٢] .

فإن الأخير يدل على أن الصحابة خير القرون وخير الناس وأنهم مثل المطر لخامة الزرع في أول نبتها، فالمطر كله خير، ولكن يصح النبات بالمطر في أول عهده وزراعته، وحاجة الزرع إلى المطر الأول ليس مثل حاجته إلى المطر في نهاية نموه..

والحديث الذي قبله يدل على دوام الخيرية في هذه الأمة وعدم انقطاعها.

● عن ثوبان ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « **عصابتان من أمتي أحرزهما اللَّه من النار، عصابة تغزو الهند، وعصابة تكون مع عيسى ابن مريم**»[٣] .

● وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: « **بعثت بجوامع الكلم،**

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد، والترمذي عن أنس، وأحمد عن عمار، وأبو يعلى في «مسنده» عن علي، والطبراني في «الكبير» عن ابن عمر، وعن ابن عمرو، والطيالسي، وابن عدي، وابن عساكر عن أنس، وابن حبان في «صحيحه» عن عمار، وأبو نعيم في «الحلية» والقضاعي عن ابن عمر، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٢٨٦)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٧٣٠).

(٢) رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي عن ابن مسعود.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد في «مسنده»، والنسائي، والضياء، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم(١٩٣٤)، و «صحيح الجامع» رقم (٣٩٠٠).

ونُصِرت بالرعب، وبينا أنا نائم أُتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوُضعت في يدي».

● قال أبو هريرة: فذهب رسول اللَّه ﷺ، وأنتم تنتقلونها»[١].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «إنكم مفتوح عليكم، منصورون ومصيبون، فمن أدرك ذلك منكم فليتق اللَّه...»[٢].

٨ـ ومن المبشرات في الستة نزول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام:

تواترت الأحاديث عن رسول اللَّه ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عادلاً وحكمًا مقسطًا، وهي متواترة تواترًا معنويًّا يفيد القطع بثبوت مضمونها.

✍ وممّن صرح بتواتره العلامة الطبري، والنووي، والقاضي عياض، وابن حجر وابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، وابن كثير، والعلاّمة الأبّي، وابن عطية، وأبو حيان الأندلسي، والشوكاني، والألوسي، ومحمد صديق حسن خان، ومحمد حبيب اللَّه الشنقيطي، والسفاريني، والكتاني، والكشميري في كتابه «التصريح بما تواتر في نزول المسيح»، والألباني، والشيخ أحمد شاكر، والكوثري، والغماري.

وقد ادعى بعضهم أن هذه أحاديث أحاد، وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في مجال العقيدة..

أما قولهم أنها أحاديث آحاد فهذا غلط لا يحتاج إلى بيان.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٩٨).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٤٠١).

وأما قولهم بأن أحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في الاعتقاد فهذه دعوى أوسع من الغبراء وأكبر من أن تظلها الخضراء، وهي دعوى لردّ النصوص، ومقتضى صنيع المحدثين كأحمد، والبخاري، ومسلم، وابن خزيمة وأصحاب السنن على خلاف قولهم، وأن خبر الواحد يؤخذ به في العقيدة.. فكيف والخبر متواتر، والمؤمن الحق لا يسعه إلا التسليم لله ولرسوله ﷺ في كل أمر، وفي أمر نزول هذا النبي الكريم ليحكم بين الناس بشريعة الإسلام ولينشر العدل على البسيطة، وليدحر الكافرين.. سينزل كما أخبر رسول الله ﷺ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾، وهناك آيات في نزول عيسى عليه السلام.

* قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].

* وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ [المائدة: ١١٠].

❑ قال ابن جرير: «قال ابن زيد: قد كلمهم عيسى في المهد، وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل»[1].

❑ وقال ابن جرير: قال الحسين بن الفضل البجلي: إن المراد بقوله ﴿وكهلاً﴾ أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان ويكلّم الناس ويقتل الدجال.

(١) «جامع البيان» للطبري (٦/ ٤٢٠).

❑ قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض.

❑ وقال ثعلب في قوله: ﴿وكهلاً﴾: ينزل عيسى إلى الأرض كهلاً» ا.هـ[1].

وإلى هذا ذهب عامة أهل التفسير كابن كثير، وابن الجوزي، والزمخشري، والألوسي[2].

والكلام من الكهل أمر مألوف معتاد فلا يحسن الإخبار به لا سيما في مقام البشارة إلا إذا كان آية.

* قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ [النساء: ١٥٩].

وأولى الأقوال بالصحة في هذه الآية كما قال ابن جرير هو كون الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ لعيسى عليه السلام، وأنه حين ينزل لا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين في ذلك الزمان إلا آمن به وصدّقه؛ لأنه يضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام.

* قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلاَ تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦١].

أي وإن عيسى لعلم للساعة تُعلَم بنزوله فلا تشكنّ فيها، وبهذا فسّرها النبي ﷺ.

---

(١) «جامع البيان» (٦/ ٤٥٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٦٤)، و«روح المعاني» (٤/ ١٧٩)، و«زاد المسير» (١/ ٣٩٦)، و«الكشاف» (١/ ١٩٢).

● عن ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: «**نزول عيسى ابن مريم من قبل يوم القيامة**»[١].

وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والضحّاك وابن زيد.

وإليك جملة من الأحاديث في نزول عيسى عليه السلام النبي والصحابي، ذكره الذهبي في الصحابة، فقال في «التجريد» عيسى ابن مريم نبي وصحابي، فإنه رأى النبي ﷺ فهو آخر الصحابة موتًا.

● عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليُوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها**»[٢].

● وعند مسلم: «**والذي نفسي بيده ليوشكن[٣] أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب[٤]، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية[٥]، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**».

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه» (٨/ ٢٨٨) باب ذكر البيان أن نزول عيسى ابن مريم من أعلام الساعة.

(٢) رواه البخاري واللفظ له في كتاب البيوع: باب قتل الخنزير (٤/ ٤١٤)، وكتاب المظالم: باب كسر الصليب وقتل الخنزير (٥/ ١٢١)، وكتاب الأنبياء: باب نزول عيسى ابن مريم (٦/ ٤٩٠)، ومسلم في كتاب الإيمان: باب نزول عيسى ابن مريم حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ، وابن منده في كتاب الإيمان (١/ ٥١٣).

(٣) أي: لا بد من ذلك سريعًا.

(٤) أي: يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة، انظر: «الفتح» (٦/ ٤٩٢).

(٥) يضع الجزية: أي لا يقبل من النصارى غير الإسلام، أو القتل.

ثم قال أبو هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ: «واقرءوا إن شئتم ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾.

● عن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**[1] ؟»[2].

● وعن جابر بن عبد اللَّه ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم تعال صل لنا فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة اللَّه لهذه الأمة**» رواه مسلم. وقد مرّ هذا الحديث من قبل.

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**والذي نفسي بيده ليُهلن**[3] **ابن مريم بفج الروْحَاء**[4] **حاجًّا أو معتمراً أو**

---

(١) الإمام المذكور هو المهدي محمد بن عبد اللَّه.
قال ابن حجر في «الفتح» (٦/ ٤٩٣): «الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه فبيّن اللَّه تعالى كذبهم، وأنه الذي يقتلهم.
قال ابن الجوزي: «لو تقدّم عيسى إمامًا لوقع في النفس إشكال، ولقيل: أتراه تقدّم نائبًا أو مبتدئًا شرعًا فصلى مأمومًا لئلا يتدنس بغبار الشبهة. وجه قوله: «لا نبي بعدي».
قال الحافظ في «الفتح» (٦/ ٤٩٤): «وفي صلاة عيسى خلف رجل من هذه الأمة مع كونه في آخر الزمان، وقرب قيام الساعة دلالة للصحيح من الأقوال أن الأرض لا تخلو من قائم للَّه بحجة واللَّه أعلم.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٤٩١) كتاب الأنبياء: باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، ومسلم: كتاب الإيمان: باب نزول عيسى ابن مريم، وأحمد (٢/ ٣٣٦)، وابن حبان (٨/ ٢٨٤)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص(٤٢٤)، وابن منده في «الإيمان» (١/ ٥١٥).

(٣) ليهلن: أي يرفع صوته بالتلبية يقول: لبيك اللهم لبيك.

(٤) فج الروحاء: الفج الطريق بين الجبلين، والروحاء طريق يبعد عن المدينة ستة أميال.

ليثنيّهما[١] »[٢].

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة، ويعطي المال حتى لا يُقبل، ويضع الخراج وينزل بالروحاء فيحج منها، أو يعتمر، أو يجمعهما**»، قال: وتلا أبو هريرة ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾[٣] الآية [النساء: ١٥٩] فزعم حنظلة أن أبا هريرة قال: يؤمن به قبل موت عيسى فلا أدري هذا كله حديث النبي ﷺ أو شيء قاله أبو هريرة.

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «**الأنبياء إخوة لعلاّت[٤] أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإني أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن نبي بيني وبينه، وإنه نازل فاعرفوه رجل مربوع[٥] إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصَّران[٦] كأن رأسه يقطر إن لم يصبه بلل، فيدق الصليب،**

---

(١) ليثنيهما: أي: يحرم بالحج والعمرة معًا.

(٢) رواه مسلم في كتاب الحج: باب إهلال النبي ﷺ وهديه ح(٢١٦)، وأحمد (٢/ ٢٤٠، ٢٧٢، ٥٤٠)، وابن منده في «الإيمان» (١/ ٥١٧).

(٣) **إسناده صحيح**: رواه أحمد (٢/ ٢٩٠)، وابن جرير (٦/ ٤٥٨)، ولفظه: «ليُهبطنَّ اللَّه عيسى ابن مريم...»، وفيه «وليسلكن الروحاء حاجًا أو معتمرًا، أو ليثنين بهما جميعًا».
وصحح سند أحمد وابن جرير الشيخ أحمد شاكر في «المسند» (٧٨٩٠)، والطبري (٦/ ٤٥٨).

(٤) علاّت: أي ضرائر.
إخوة لعلاّت: قال ابن الأثير في «النهاية» (٣/ ٢٩١): أولاد العلات الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد. يعني إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة».

(٥) مربوع: يقال: رجل ربعة ومربوع يعني: معتدل القامة بين الطويل والقصير.

(٦) ممصّران: أي: فيهما صفرة خفيفة.

ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك اللَّه في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك اللَّه في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمانة[١] على الأرض حتى ترتع[٢] الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيّات لا تضرّهم فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»[٣].

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «طوبى لعيش بعد المسيح[٤] يُؤذنُ للسماء في القَطر[٥]، ويؤذن للأرض في النبات، حتى لو بذرت حبك على الصفا[٦] لنبت. وحتى يمر الرجل على الأسد فلا يضره، ويطأ على الحية فلا تضرّه ولا تشاحّ[٧] ولا تحاسد، ولا تباغض»[٨].

---

(١) الأمانة: أي: الأمن والسلام.

(٢) ترتع: أي: تلعب.

(٣) **سنده صحيح**: رواه أحمد رقم (٩٢٥٩)، وأبو داود (٤/ ١١٧)، وابن جرير (٩/ ٣٨٨)، وابن حبان (٨/ ٢٧٧)، والحاكم (٢/ ٥٩٥)، وصححه ووافقه الذهبي، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٥٨)، وصحح سند أحمد والطبري الشيخ أحمد شاكر.

(٤) أي: بعد نزول المسيح، وقتله للدجال.

(٥) القطر: المطر.

(٦) الصفا: الصخرة الملساء.

(٧) لا تشاح: أي: لا معاداة.

(٨) **إسناده صحيح**: رواه أبو سعيد النقاش في «فوائد العراقيين»، وأبو بكر الأنباري في «حديثه»، ومن طريق الأنباري رواه الديلمي (٢/ ١٦١)، وابن المحب في «صفات رب العالمين» (١/ ٤٢٧)، وقال: «هذا على شرط البخاري».

قال الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (١٩٢٦):

قلت: «جعفر بن محمد بن شاكر لم يخرج له البخاري، ولا غيره من الستة، وهو ثقة، وقد ترجمه الخطيب (٧/ ١٨٥ ـ ١٨٧)، وفي «التهذيب» أيضًا، ولم يرمز له بشيء.

ورواه الضياء في «المنتقى من مسموعاته بمرو»: . . . قلت: فالإسناد صحيح». وصححه أيضًا في «صحيح الجامع» رقم (٣٨١٤).

● وعن أنس ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من أدرك منكم عيسى ابن مريم، فليقرئه مني السلام»[١].

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تنزل الروم بالأعماق، أو بدابق[٢] فيخرج إليهم جيش من المدينة[٣] من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا قالت الروم: خلّوا بيننا وبين الذين سبُوا منا[٤] نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا واللَّه لا نخلي بينكم وبين إخواننا فيقاتلونهم فيهزم ثلث لا يتوب اللَّه عليهم أبداً، ويُقتل ثلثهم ـ أفضل الشهداء عند اللَّه ـ، ويفتح الثلث لا يفتنون فيفتحون قسطنطينية[٥]، فبينما هم يقسمون الغنائم قد علّقوا سيوفهم بالزيتون[٦] إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح[٧] قد خلفكم[٨] في أهليكم فيخرجون وذلك باطل[٩]، فإذا جاءوا[١٠] الشام خرج فبينما هم يُعِدّون للقتال يسوون الصفوف إذ أقيمت الصلاة فينزل عيسى ابن مريم فيؤمهم[١١] فإذا

---

(١) حسن: رواه الحاكم في «المستدرك»، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٨ ٢٣٠)، و«صحيح الجامع» رقم (٥٨٧٧).

(٢) الأعماق ودابق: موضعان بالقرب من مدينة حلب.

(٣) المدينة: المراد بها حلب أو دمشق، وقيل المراد بها المدينة النبوية.

(٤) سبُوا: أي: أسروا، وأخذوا منا ثم آمنوا، وقاتلونا معكم.

(٥) قسطنطينية: هي إسطنبول كما في معجم البلدان.

(٦) الزيتون: أي: أشجار الزيتون.

(٧) المسيح: هو الدجال الأكبر، وقد لقّبه النبي في حديث آخر بمسيح الضلالة.

(٨) خلفكم: أي: خرج وعاث في الأرض.

(٩) باطل: أي: أن هذا القول الذي قاله الشيطان إنما كان باطلاً.

(١٠) جاءوا: من القسطنطينية إلى بلاد الشام، ودخلوا القدس.

(١١) فأمّهم: يعني: أمر إمامهم بالإمامة.

رآه عدو اللَّه ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لذاب حتى يهلك، ولكن اللَّه يقتله بيده[١] فيريهم دمه في حربته»[٢].

● عن ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «لقيت ليلةَ أُسْرِي بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال: لا علم لي بها، فردّوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي بها، فردّوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجْبَتُها فلا يعلم بها أحد إلا اللَّه، وفيما عهد إليّ ربي عز وجل أن الدجال خارج ومعي قضيبان[٣]، فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص[٤] قال: فيهلكه اللَّه إذا رآني، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيطئون بلادهم، فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرّون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس يشكونهم فأدعو اللَّه عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تَجْوَى[٥] الأرض من نتن ريحهم، ويُنزِل اللَّه المطر فيجترف[٦] أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ففيما عهد إليّ ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المُتِم[٧] لا يدري

---

(١) بيده: أي: بيد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام.

(٢) رواه مسلم: في كتاب الفتن: باب فتح القسطنطينية ح (٢٨٩٧)، وابن أبي شيبة (١٥/ ١٥٧ ـ ١٥٨)، والحاكم (٤/ ٤٨٢).

(٣) قضيبان: أي: سيفان.

(٤) ذاب كما يذوب الرصاص: كناية عن هروبه واختفائه.

(٥) تجوى الأرض: أي: لا يطيق الإنسان المعيشة عليها من نتن رائحتهم.

(٦) يجترف: أي: يحملها ويلقيها.

(٧) كالحامل المتم: أي: التي على وشك الوضع.

أهلها متى تفاجئهم بولادها ليلاً أو نهاراً»[١] .

● عن عبد اللَّه بن عمرو ـ رضي اللَّه عنهما ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ : «يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين شهرًا، أو أربعين عامًا فيبعث اللَّه تعالى عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة...»[٢] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : «ليقتلنَّ ابنُ مريم الدجال بباب لُدٍّ»[٣] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : «يقتل ابن مريم الدجال بباب لد»[٤] .

● وقال رسول اللَّه ﷺ : «ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق»[٥] .

● وعن حذيفة بن أسيد الغفاري ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: أشرف علينا رسول اللَّه ﷺ من غرفة، ونحن نتذاكر الساعة فقال: «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول عيسى ابن مريم، والدجال، وثلاثة خسوف:

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٧٥)، وابن ماجه (٤٠٨١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٨٤)، وصححه ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٢) رواه مسلم: كتاب الفتن ـ باب خروج الدجال ومكثه بالأرض، والحاكم (٤/ ٥٥٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» عن مجمع بن جارية، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٥٣٣٨).

(٤) صحيح: رواه الترمذي عن مجمع بن جارية، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧٩٨٢).

(٥) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن أوس بن أوس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٥٠٨).

خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا»[١].

● وفي حديث النواس بن سمعان: «... فبينما هو كذلك إذ بعث اللَّه المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعًا كفّيه على أجنحة مَلَكَيْن، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحلّ لكافر يجد ريحه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله» . . . وفيه: «ثم يقال للأرض أنبتي ثمرتك وردّي بركتك فيومئذ تأكل العصابة[٢] من الرّمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرِّسْل[٣] حتى إن اللقحة[٤] من الإبل لتكفي الفئام[٥] من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[٦] من الناس...»[٧].

● وعن أبي أمامة ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: «يا أيها الناس! إنها لم تكن فتنة على وجه الأرض، منذ ذرأ اللَّه ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال...» وفي الحديث: «وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدّم يصلي بهم الصبح، إذْ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح، فرجع ذلك الإمام ينكص يمشي القَهقَرى

(١) رواه مسلم: كتاب الفتن. . باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، ورواه أحمد (٤/ ٧)، والترمذي (٢١٨٣)، وابن ماجه (٤٠٥٥)، وأبو داود (٤٣١١)، والطيالسي (١٠٦٧)، وأبو بكر بن أبي شيبة (١٥/ ١٣٠)، (١٥/ ١٦٣).

(٢) العصابة: الجماعة.

(٣) الرسل: اللبن.

(٤) اللقحة: اللبون.

(٥) الفئام: الجماعة.

(٦) الفخذ: من الناس دون القبيلة.

(٧) رواه مسلم في كتاب الفتن: باب ذكر الدجال وصفته، وأبو داود مختصراً (٤٣٢١)، والترمذي (٢٢٤٠)، وابن ماجه (٤٠٧٥)، والحاكم (٤/ ٤٩٢).

ليتقدم عيسى، فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له: تقدّم فصلِّ؛ فإنها لك أُقيمت، فيُصلِّي بهم إمامهم، فإذا انصرف[١] قال عيسى: افتحوا الباب، ففتحون ووراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلّى وساجٍ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هاربًا... فيدركه عند باب لُدّ الشرقي فيقتله، فيهزم اللَّه اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق اللَّه عز وجل يتوارى به يهودي، إلا أنطق اللَّه ذلك الشيء، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا الغرقدة، فإنها من شجرهم لا تنطق، إلا قال: يا عبد اللَّه المسلمَ هذا يهودي فتعال اقتله.

فيكون عيسى ابن مريم في أمتي حكمًا عدلاً، وإمامًا مقسطًا يدقّ الصليب، ويذبح[٢] الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يُسعى على شاة ولا بعير، وتُرفع الشحناء والتباغض، وتُنزع حُمَة كلِّ ذات حمة، حتى يُدخل الوليد يده في الحيّة فلا تضرّه، وتضرّ الوليدة الأسدَ فلا يضرّها، ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها، وتملأ الأرض من السِّلم كما يملأ الإناء من الماء، وتكون الكلمة واحدة، فلا يعبد إلا اللَّه، وتضع الحرب أوزارها، وتُسلب قريش ملكها، وتكون الأرض كفاثور[٣] الفضة، تنبت نباتها بعهد آدم حتى يجتمع النفر على القِطف من العنب فيشبعهم، ويجتمع النفر على الرمانة فتشبعهم، ويكون الثور بكذا وكذا من المال، ويكون الفرس بالدريهمات...»[٤].

---

(١) قال الشيخ الألباني: قلت فيه اختصار، تقديره فإذا انصرف إلى بيت المقدس، والمسلمون فيه محاصرون قال... كما يدل عليه بعض الأحاديث الأخرى.

(٢) قال الشيخ الألباني: كذا في هذا الحديث، والصحيح: «ويقتل» كما في الأحاديث الأخرى.

(٣) فاثور: الطَّسْتُ، والجفنة، والخِوانُ من رخام ونحوه.

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه، وابن خزيمة، والحاكم في «المستدرك»، والضياء عن أبي أمامة، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٤٥٧)، و«صحيح الجامع» رقم (٧٧٥٢).

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فأمَّكُم**[١]»[٢].

❑ قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٥٨٢): «فهذه أحاديث متواترة عن رسول اللَّه ﷺ من رواية أبي هريرة وابن مسعود، وعثمان بن أبي العاص، وأبي أمامة، والنواس بن سمعان، وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص، ومجمع ابن جارية، وحذيفة بن أسيد ـ رضي اللَّه عنهم ـ وفيها دلالة على صفة نزوله ومكانه من أنه الشام بل دمشق عند المنارة الشرقية، وأن ذلك يكون عند إقامة الصبح» ا.هـ.

٩ـ ومن المبشّرات ظهور المهدي المنتظر:

❑ قال الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه اللَّه ـ: «أما إنكار المهدي المنتظر بالكلية كما زعم ذلك بعض المتأخرين فهو قول باطل؛ لأن أحاديث خروجه في آخر الزمان، وأنه يملأ الأرض عدلاً وقسطًا كما ملئت جورًا، قد تواترت تواترًا معنويًّا، وكثرت جدًّا واستفاضت كما صرّح بذلك جماعة من أهل العلم بينهم أبو الحسن الآبري السجستاني من علماء القرن الرابع، والعلاّمة السفاريني، والعلامة الشوكاني وغيرهم، وهو كالإجماع من أهل العلم»[٣].

✍ وممن أثبت أحاديث المهدي وصححها من العلماء السابقين:

العقيلي، والآبري، والسهيلي، والخطابي، والبيهقي، وابن الأثير، والهيثمي، وابن حبان، وابن الجوزي، والمنذري، وابن تيمية، والذهبي،

---

(١) أمَّكُم: أمكم بكتاب ربكم وسنة نبيكم.

(٢) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٣) جريدة عكاظ ١٨ محرم ١٤٠٠هـ.

وابن القيم، وابن كثير، وابن حجر العسقلاني، والسيوطي، والسخاوي، والقسطلاني، والكشميري، ومنهم القرطبي، وابن العربي، والمناوي، وابن حجر الهيثمي، والزرقاني والصبان.

ومنهم علي بن سلطان القاري، والسفاريني، والبوصيري، والشوكاني، والصنعاني، والمباركفوري، وشمس الحق أبادي، والعجلوني، والسندي، ومحمد صديق حسن خان، والكتاني، وأبو السعود، ومحمد بشير السهسواني، ومحمد الأمين الشنقيطي، وأحمد محمد شاكر، والألباني، وأبو شهبة، وحمود التويجري، وابن باز، ومحمد حسنين مخلوف وسيد سابق.

✍ وخرّج أحاديث المهدي الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن أبي شيبة، والدارقطني، وابن خزيمة، والطبراني، والحاكم، والبيهقي، وأبو نعيم، وأبو يعلى، والبزار، ونعيم ابن حماد، والخطيب، والروياني، وعبد بن حميد، والحارث بن أبي أسامة، وأبو عوانة، وعبد الرزاق الصنعاني.

✍ وقد صرّح كثير من العلماء في الأحاديث الواردة في شأن المهدي بأنها متواترة ـ تواترًا معنويًّا ـ ومنهم الآبري كما نقله كثير من العلماء كالقرطبي، والحافظ ابن حجر، وابن القيم، والسخاوي، والسيوطي، والزرقاني، وأقروه عليه، وكذا قال الشوكاني، وصديق حسن خان، والسفاريني، والكتاني. فثبت تواتره ولله الحمد.

وأما قولهم إنه من أحاديث الآحاد، وإنها لا تفيد عقيدة فهذا قول باطل.

وكل أحادي صحيح تلقته الأمة بالقبول من غير نكير، فإنه يفيد العلم واليقين واختار هذا ابن الصلاح، ووافقه ابن كثير، وابن حجر، والسيوطي[١].

✍ «وخبر الآحاد يعمل بها في أصول الدين وحكى ابن عبد البر الإجماع على ذلك»، كما قال السفاريني. ولله در محدث ديار الشام حين أفرد رسالته الماتعة في «وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقائد».

✍ وإثبات حقيقة المهدي من عقيدة أهل السنة والجماعة وقد أفرد له كثير من أهل العلم مصنفات في ذلك، منهم السيوطي في «العَرْف الوردي في أخبار المهدي»، والشوكاني في «التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر والدجّال والمسيح». ومنهم الشيخ عبد المحسن العباد في «عقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر».

وهذه بعض أحاديث المهدي:

● قال رسول الله ﷺ: «**المهدي من عترتي**[٢] **من ولد فاطمة**»[٣].

● وقال رسول الله ﷺ: «**المهدي منا أهل البيت، يصلحه الله**[٤] **في ليلة**»[٥].

---

(١) انظر: رسالة شيخنا محمد إسماعيل المقدم «المهدي حقيقة لا خرافة».

(٢) نسلي وعشيرتي.

(٣) **صحيح**: رواه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم عن أم سلمة، وقال الشيخ الألباني: «هذا سند جيد رجاله كلهم ثقات» وصححه في «صحيح الجامع» رقم(: ٦٦١).

(٤) يصلحه: قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٤٣): «أي: يتوب عليه ويوفقه ويلهمه رشده بعد أن لم يكن كذلك».

(٥) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه عن علي، وكذا رواه ابن عدي، وأبو نعيم والعقيلي، ورمز السيوطي لحسنه، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر «المسند» ح (٦٤٥)، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٦١١).

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «المهدي مني، أجلى[١] الجبهة، أقنى[٢] الأنف، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما مُلئت جورًا وظلمًا، يملك سبع سنين»[٣].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «لتُملأنّ الأرضُ جورًا وظلمًا، فإذا ملئت جورًا وظلمًا، يبعث اللَّه رجلا مني، اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، فيملؤها عدلاً وقسطًا، كما مُلئت جَوْرًا وظلمًا، فلا تمنع السماء شيئًا من قطرها، ولا الأرض شيئًا من نباتها، يمكث فيكم سبعًا، أو ثمانيًا، فإن أكثر فتسعًا»[٤].

● وعن أبي سعيد ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لتُملأن الأرضُ ظلمًا وعدوانًا، ثم ليخرجنّ رجل من أهل بيتي، حتى يملأها قسطًا وعدلاً، كما مُلئت ظلمًا وعدوانًا»[٥].

● وعن ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطوّل اللَّه ذلك اليوم حتى يُبعث فيه رجل مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجورًا»[٦].

---

(١) أي: منحسر شعره عن مقدم رأسه.

(٢) يعني: طويل مع دقة فيه.

(٣) حسن: رواه أبو داود، والحاكم عن أبي سعيد، وقال ابن القيم: رواه أبو داود بإسناد جيد، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦١٢)، وتخريج «المشكاة» (٥٤٥٤).

(٤) صحيح: رواه البزار والطبراني في «الكبير»، وابن عدي، وأبو نعيم عن أبي سعيد الخدري، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٤٩)، و«السلسلة الصحيحة» (١٥٢٩).

(٥) صحيح: رواه الحارث واللفظ له، وأحمد في «مسنده»، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٩٥٠) و «السلسلة الصحيحة» رقم (١٥٢٩).

(٦) صحيح: رواه أبو داود، والترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «تحقيق المشكاة» (٥٤٥٢)، و «صحيح الجامع» (٥١٨٠).

● وعن علي ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لو لم يبق من الدهر إلا يومٌ، لبعث اللَّه رجلا من أهل بيتي، يملؤها عدلاً، كما مُلئت جوراً**»(١).

● وعند أحمد عن علي ـ رضي اللَّه عنه ـ بلفظ: «**لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لبعث اللَّه عز وجل رجلاً منا يملؤها عدلاً كما مُلئت جوراً**»(٢).

● وعن عبد اللَّه بن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تذهب الدنيا، ولا تنقضي، حتى يملك رجل من أهل بيتي، يواطئ(٣) اسمه اسمي**»(٤).

● وعند أحمد بلفظ: «**لا تقوم الساعة حتى يلي رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي**»(٥).

● وعند أحمد أيضًا بلفظ: «**لا تنقضي الأيام ويذهب الدهر حتى يملك...**»(٦).

● وعند الحاكم بلفظ: «**لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل من أهل بيتي، يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، فيملأ الأرض قسطًا وعدلاً، كما مُلئت جوراً وظلمًا**».

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده» وأبو داود عن علي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١٨١).

(٢) **إسناده صحيح**: قال الشيخ أحمد محمد شاكر: إسناداه صحيحان (٢/ ١١٧) رقم(٧٣٣).

(٣) أي: يوافق.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد في «مسنده»، وأبو داود والترمذي، وابن حبان، والحاكم في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٧١٥٢) و«تخريج المشكاة» (٥٤٥٢).

(٥) قال الشيخ شاكر: إسناده صحيح. انظر «المسند» ح رقم (٣٥٧١)، (٥/ ١٩٦).

(٦) قال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح، انظر «المسند» (٥/ ١٩٩) حديث رقم (٣٥٧٢).

● وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي اللَّـه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه اللَّه الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطي المال صحاحًا، وتكثر الماشية، ويعيش سبعًا أو ثمانيًا**» يعني: حججًا[١].

● وعن عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**المهدي رجل من عترتي يقاتل على سنتي كما قاتلت أنا على الوحي**»[٢].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «**يكون في آخر الزمان خليفة، يقسم المال ولا يَعُدّه**»[٣].

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «**يكون في آخر أمتي خليفة، يحثي[٤] المال حثيًا، ولا يعدّه عدًّا**»[٥].

● وقال ﷺ: «**من خلفائكم خليفة، يحثو المال حثيا، لا يعدّه عدًّا**»[٦].

● وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي اللَّـه عنه ـ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أبشّركم بالمهدي، يبعث على اختلاف من الناس وزلازل، فيملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت جورًا وظلمًا، يرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض، يقسم المال صحاحًا**» قال له رجل: ما صحاحًا؟ قال: «**بالسّويّة بين**

---

(١) **صحيح الإسناد**: أخرجه الحاكم وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرّجاه» ووافقه الذهبي. وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٧١١): سنده صحيح، رجاله ثقات.

(٢) **إسناده جيد**: رواه نعيم بن حماد في كتاب «الفتن» بإسناد جيد انظر «مشكاة المصابيح» (٣/ ٢٩).

(٣) رواه أحمد ومسلم عن أبي سعيد وجابر.

(٤) يحثي المال: أي: يغرف منه غرفًا.

(٥) رواه أحمد ومسلم عن جابر.

(٦) رواه مسلم عن أبي سعيد.

الناس، ويملأ اللَّه قلوب أمة محمد ﷺ غناء ويسعهم عدله حتى يأمر مناديًا فيقول: «من له في مال حاجة؟» فما يقوم من الناس إلا رجل واحد فيقول: «أنا» فيقول: «ائت السدّان» يعني: الخازن، فقل له: «إن المهدي يأمرك أن تعطيني مالاً»، فيقول له: «احث» حتى إذا جعله في حِجْره، وائتزره ندم. فيقول: «كنت أجشع أمة محمد ﷺ، أو عجز عني ما وسعهم؟، قال: «فيردّه، فلا يُقبل منه، فيقال له: «إنا لا نأخذ شيئًا أعطيناه» فيكون كذلك سبع سنين أو ثمان أو تسع سنين، ثم لا خير في العيش بعده» أو قال: «ثم لا خير في حياة بعده»[١].

● وعن أبي هريرة ـ رضي اللَّه عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «يكون في أمتي المهدي إن كثر فسبع وإلا ثمان وإلا فتسع، تنعم أمتي فيها نعمة لم ينعموا مثلها يرسل السماء عليهم مدراراً، ولا تدّخر الأرض شيئًا من النبات، والمال كُدُوس[٢] يقوم الرجل يقول: يا مهدي أعطني، فيقول: خذ»[٣].

● عن جابر أن النبي ﷺ قال: «ينزل عيسى ابن مريم، فيقول أميرهم المهدي: تعال صل بنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمير، تكرمة اللَّه لهذه الأمة»[٤].

---

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٣١٤): رواه الترمذي وغيره باختصار كثير، ورواه أحمد بأسانيد وأبو يعلى باختصار كثير، ورجالهما ثقات ا.هـ. وقال السيوطي في «الحاوي» (٢/ ١٦٢): وإسنادهما جيد، وضعف الحديث الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» رقم (٣٨)، وقال الغماري: خرجه أحمد بأسانيد صحيحة، وأبو يعلى بإسناد صحيح أيضًا.

(٢) كدوس: مجتمع.

(٣) رواه الطبراني في «الأوسط»، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات (٧/ ٣١٧)، وقال الشوكاني: رواه البزار أيضًا ورجاله ثقات، ورواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٥٨)، وابن ماجه (٢/ ٥١٨) عن أبي سعيد.

(٤) إسناده جيد: رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» وأبو نعيم، وقال ابن القيم في «نقد المنقول» ص(٧٧) بعد ذكره لحديث الحارث: وهذا إسناد جيد.

١٠ـ الانتصار على اليهود:

نوقن بهذا أكثر من يقيننا بوجودنا يوم أن يستيقظ المارد النائم ليصب على الأمة الغضبية جام غضب الله، يومها سيكون القتال في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ليس قتالاً قوميًّا رغم أنف الرفاق والعلمانيين والقوميين وأذنابهم، فلن يقدر على ردع الشيطان اليهودي سوى نور القرآن يحرقه.

أما الخريطة التي نقشوها على باب «الكنيست» فلن يكون لها وجود إلا في عقولهم المحنطة، وقلوبهم القاسية. وإليكم وعد اللَّه على لسان رسوله للمؤمنين بالنصر على اليهود:

● قال رسول اللَّه ﷺ: «**تقاتلون اليهود، فتسلّطون عليهم، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول الحجر: يا عبد اللَّه هذا يهودي ورائي فاقتله**»(١).

● ويقول رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود، حتى يقول الحجر وراءه اليهودي: يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله**»(٢).

● وقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم! يا عبد اللَّه! هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله إلا الغرقد(٣)؛ فإنه من شجر اليهود**»(٤).

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي عن عبد اللَّه بن عمر.

(٢) رواه البخاري، ومسلم عن أبي هريرة.

(٣) الغرقد: شجيرة ارتفاعها من متر إلى ثلاثة، بيضاء السوق والفروع، تؤكل أزهارها البيضاء المخضرة المخروطية.

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة.

وفهم ديّان ما لم يفهمه علمانيو العرب:

هذا موشي ديّان وزير الدفاع اليهودي السابق دخل يزور إحدى القرى في فلسطين وأخذ يصافح الشباب المسلم في هذه القرية، ورفض شاب مؤمن من هذه القرية أن يمدّ يده ليصافحه وقال له: أنتم أعداء أمتنا تحتلون أرضنا وتسلبون حريتنا، ولكن يوم الخلاص منكم لا بد آت بإذن اللَّه لتتحقق نبوءة رسول اللَّه ﷺ: «**لتقاتلن اليهود أنتم شرقي النهر وهُمْ غربيّه**»(١) فابتسم ديّان وقال: حقًّا سيأتي يوم نخرج فيه من هذه الأرض، وهذه نبوءة نجد لها في كتبنا أصلا ولكن متى؟

إذا قام فيكم شعب يعتزّ بتراثه، ويحترم دينه، ويقدّر قيمه الحضارية، وإذا قام فينا شعب يرفض تراثه ويتنكّر لتاريخه عندها تقوم لكم قائمة، وينتهي حكم إسرائيل.

* * *

«فيا فلسطينُ مَن يهديك أغنيةً
ومَن يعيدُ لكِ البيت الذي خَرِبا
شُرِّدت فوق رصيف الدمع باحثةً
عن الحنان ولكن ما وجدت أبًا»
وستجدُه يومًا..

---

(١) وفي رواية البزار ـ ورجالها ثقات رجال «الصحيح» كما جاء في «مجمع الزوائد» للهيثمي في المجلد السابع ـ: «أنتم شرقيّ الأردن وهم غربيّه» ويعقب راوي الحديث فيقول: ولم نكن نعرفُ أين الأردن من الأرض يومذاك.
انظر: كتاب «الإسلام ومستقبل البشرية» للدكتور عبد اللَّه عزام ص(٣٨).

وجيشُ محمدٍ سيعودُ في عزٍّ وفي غَلَبِ
وإنَّ الغَرْقَدَ الملعون مقطوعٌ بلا نَسَبِ
وإن السامِرِيَّ سيوقد النيران فوق مفاوز العربِ
ويمضي مثلما وَلَّتْ
جميع كتائب الإفرنج من حقب
ويبقى تائهًا في الأرض
يعبُد عجله الذهبي[١]

١١ـ ومن المبشرات في السنة فتح القسطنطينية مرة ثانية:

يظن الناس أن الدين إلى انحسار حتى خروج المهدي مع أن المهدي قبل عيسى بقليل، وقبل ذلك يعم الإسلام العالم، وتفتح روما، والقسطنطينية اليوم مسلمة وكانت كافرة ففُتحت، وقد أخبر الرسول ﷺ بالفتح الأول، ولكن يبدو أن القسطنطينية سترجع كافرة مرة ثانية، وتفتح من جديد، وفتحها الثاني يكون قُبيل المسيح بقليل، والناس لا يُفرّقون بين فتحها الأول والثاني»[٢] . وقد بشرت به السنة أيضًا.

● قال رسول اللَّه ﷺ : «**عمرانُ بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال**»[٣] .

(١) من قصيدة «من قلب التنور» من ديوان «تراتيل للغد الآتي» لوليد قصّاب.
(٢) «الإسلام» للأستاذ سعيد حوّى (٤/ ٨٥).
(٣) صَحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وأبو داود عن معاذ، وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٥٤٢٤)، و«صحيح الجامع» رقم (٣٩٧٥).

● وقال رسول اللَّه ﷺ : «تكون بينكم وبين بني الأصفر هدْنة، فيغدرون بكم، فيسيرون إليكم في ثمانين غاية، تحت كل غاية منهم اثنا عشر ألفًا»(١) .

● وقال ﷺ : «ستصالحون الروم صلحًا آمنًا، فتغزون أنتم وهم عدوًّا من ورائهم، فتسْلمون وتغنمون، ثم تنزلون بمرج ذي تُلول، فيقوم رجل من الروم فيرفع الصليب، ويقول:غلب الصليب! فيقوم إليه رجل من المسلمين فيقتله، فيغدر القوم، وتكون الملاحم، فيجتمعون لكم فيأتونكم في ثمانين غاية مع كل غاية عشرة آلاف»(٢) .

❑ وقد مر بنا حديث فتح القسطنطينية من قبل:

● قال رسول اللَّه ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافوا، قالت الروم: خلّوا بيننا وبين الذين سبُوا منا نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا واللَّه لا نخلي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب اللَّه عليهم أبدًا، ويقتل ثلثٌ هم أفضل الشهداء عند اللَّه، ويَفْتتح الثلث، لا يُفْتنون أبدًا، فيفتتحون القسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون، إذْ صاح فيهم الشيطان: إن الدجال قد خلَفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يَعدّون للقتال، يسوون الصفوف، إذ أقيمت

(١) صحيح: رواه ابن ماجه عن عوف بن مالك، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٩٨٨).

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وأبو داود، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه» عن ذي مخمر، وصححه الألباني في «تخريج المشكاة» (٥٤٢٨)، و«صحيح الجامع» (٣٦٠٦).

الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم، فأمّهم، فإذا رآه عدو اللَّه ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله اللَّه بيده، فيريهم دمه في حربته»[١].

▣ وهذا الفتح الثاني إنما يكون بالتهليل والتكبير:

● قال رسول اللَّه ﷺ: «سمعتم بمدينة جانب منها في البرّ وجانب في البحر؟ لا تقوم الساعة حتى يغزوها سبعون ألفًا من بني إسحاق[٢]، فإذا جاءوها نزلوا فلم يُقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر، فيسقط أحد جانبيها الذي في البحر، ثم يقولون الثانية: لا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر، فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر، فيفرج لهم، فيدخلونها، فيغنمون، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ[٣]، فقال: إن الدجّال قد خرج، فيتركون كل شيء ويرجعون»[٤].

١٢ ـ وأخيرًا غزو الدجال وقتله بيد عيسى ابن مريم عليه السلام:

عن نافع بن عتبة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها اللَّه، ثم فارس، فيفتحها اللَّه. ثم تغزون الدجال، فيفتحه اللَّه»[٥].

---

(١) مرّ تخريجه من قبل.

(٢) المراد: العرب، والمحفوظ: «من بني إسماعيل». والمدينة: القسطنطينية.

(٣) الصريخ: المنادي.

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٥) رواه مسلم (٢٩٠٠).

❑ ولله در القائل:

ماذا تُـعدُّ لـنـا الـغـيـوب؟ كـأنـنـي ... أرنـو فأبصـر ثَمَّ فـجرًا مـؤمـنًـا
وتشـعُّ مـلءَ عـيـونـه آمـالُـنـا ... مجداً.. تُسطِّره الـسماء.. مُـمَكَّنَا
وخيولنا أبداً.. تتوق إلى الـذرى ... وكتابنا شمسٌ تضيء على الدُّنَى[1]

ستخضرّ أغراسنا فـي التيه.. تنفحنا نشوة علوية.. يـسمو بها طهر بلابل تصدح في خاطرنا، مع الآمال وريف الظلال والأضواء وعطر كل شيء طاهر سيعود حين يعود مجد الإسلام.

كالـشعاع المضيء.. يمنح للدُّنـ ... ـيـا سـنـاهُ.. ويـمـلأ الأرض ريًّـا
يغتذي بالهدى.. ويشدو البرايا ... صادق الـنـهـج.. هـاديًا مـهـديًّـا

❑ نعم نعم سيتهاوى الظلام.. ويشعشع وجه الـنهار.. وتضحك عين الرمال.

ستشب كـالبـركـان.. يـقـظة أمّةٍ ... والفجر من خلف الدياجي مقبلُ

* * *

(١) «جراح وكلمات» لأحمد محمد الصديق ص (٤٨).

* أحاديث أسيء فهمها:

هناك أحاديث أُسيء فهم معناها، فأسقط في أيدي الجهّال، وكان هذا الفهم السقيم ذريعة «للمثّاقلين» و«المبطئين» والمستطارين الذين تهزّهم الشاردة والواردة. ومن هذه الأحاديث:ـ

● **«لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم»**[1].

قال الألباني في «الصحيحة» (١/ ١٠):

«رواه البخاري في «الفتن» من حديث أنس مرفوعًا.

فهذا الحديث ينبغي أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها مثل أحاديث المهدي ونزول عيسى عليه السلام؛ فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه بل هو من العام المخصوص، فلا يجوز إفهام الناس على أنه على عمومه، فيقعوا في اليأس الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. أسأل اللَّه ان يجعلنا مؤمنين به حقًّا»ا.هـ.

«يتخذ بعض الناس من هذا الحديث تُكَاة للقعود عن العمل، ومحاولة الإصلاح والإنقاذ، مدّعيًا أن الحديث يدل على أن الأمور في تدهور دائم، وسقوط مستمر وهُويّ متتابع، من دركٍ إلى دركٍ أسفل منه، فهي لا تنتقل من سيئ إلا إلى أسوأ، ولا من أسوأ إلاّ إلى الأسوأ منه. حتى تقوم الساعة على شرار الناس.

---

(١) رواه البخاري بسنده إلى الزبير بن عدي، قال: أتينا أنس بن مالك فشكونا إليه ما نلقى من الحجّاج، فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ.

✍ وهذا الفهم السقيم للحديث يردّه أن بعض الأزمنة تكون في الشر دون التي قبلها، ولو لم يكن في ذلك إلا زمن عمر بن عبد العزيز، وهو بعد زمن الحجاج ـ الذي عمّت الشكوى منه ـ بيسير، وقد اشتهر الخير الذي كان في زمن عمر بن عبد العزيز، بل قيل: إن الشر اضمحل في زمانه، فضلاً عن أن يكون شرًّا من الذي قبله.

وقد أجاب العلماء عن هذا الحديث بعدة أجوبة منها:

✍ حمل الحديث على الأكثر الأغلب وهذا قول الحسن البصري، فقد سُئل عن عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج، فقال: لا بدّ للناس من تنفيس.

❑ قال ابن مسعود ـ رضي اللَّه عنه ـ: «لا يأتي عليكم زمان إلاّ وهو أشرّ مما كان قبله، أما إني لا أعني أميرًا خيرًا من أمير، ولا عامًا خيرًا من عام، ولكن علماؤكم وفقهاؤكم يذهبون، ثم لا تجدون منهم خلفًا، ويجيء قوم يفتون برأيهم»، وفي لفظ عنه: «فيثلمون الإسلام ويهدمونه»، ورجّح الحافظ في «الفتح» تفسير ابن مسعود لمعنى الخيرية والشرية هنا، قائلاً: وهو أولى بالاتباع.

فالنصوص تدل على أن في الغيب أدوارًا للإسلام ترتفع فيها رايته وتعلو كلمته.

والتاريخ يثبت أنه قد جاءت فترات ركود وجمود في العالم أعقبتها أزمنة حركة وتجديد، ويكفي أن نذكر مثلاً مَن ظهر في القرن الثامن من العلماء والمجددين ـ بعد سقوط الخلافة الإسلامية في بغداد، وتدهور الأوضاع في القرن السابع ـ مثل: شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن

القيم، وسائر تلاميذه في الشام، والشاطبي في الأندلس، وابن خلدون في المغرب، وغيرهم ممن ترجم لهم ابن حجر في كتابه «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة».

وفي العصور التي تلت ذلك نجد مثل ابن حجر، والسيوطي في مصر، وابن الوزير والشوكاني والصنعاني في اليمن، والدهلوي في الهند، وابن عبد الوهاب في نجد.

وهذا ما جعل الإمام ابن حبان في «صحيحه» يرى أن حديث أنس ليس على عمومه، مستدلاً بالأحاديث الواردة في المهدي، وأنه يملأ الأرض عدلاً، بعد أن مُلئت جورًا.

✍ وأرجح التفسيرات لهذا الحديث ما ذكره الحافظ في «الفتح» بقوله: « ويحتمل أن يكون المراد بالأزمنة المذكورة أزمنة الصحابة، بناءً على أنهم المخاطبون بذلك، فيختص بهم، فأمّا مَن بعدهم فلم يقصد في الخبر المذكور، لكن الصحابي فَهِم التعميم ـ فلذلك أجاب من شكا إليه الحجاج بذلك وأمرهم بالصبر، وهم ـ أو جلّهم ـ من التابعين»[(١)].

وعلى هذا التفسير يحمل كلام ابن مسعود أيضًا، فهو خاص بأزمنة من كان يخاطبهم من الصحابة والتابعين»[(٢)].

* **حديث: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا، كما بدأ، فطوبى للغرباء»**[(٣)]:

---

(١) «فتح الباري» (١٦/٢٢٨) ـ طبعة الحلبي.

(٢) بتصريف من «المبشرات بانتصار الإسلام» للقرضاوي ص(١٢٦ ـ ١٢٩).

(٣) رواه مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة، والترمذي وابن ماجه عن ابن مسعود، وابن ماجه عن أنس، والطبراني عن سلمان وسهل بن سعد، وابن عباس.

✍ هل يعني هذا الحديث ضعف الإسلام وأفول نجمه؟!

✍ هل هذه الغربة عامة وشاملة ودائمة، أم هي غربة جزئية ومؤقتة؟ فقد تكون في بلد دون آخر، وفي زمن دون آخر، وبين قوم دون غيرهم، كما ذكر ذلك المحقق ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ.

والإسلام يعرض له ما يعرض لكل الدعوات والرسالات من القوة والضعف، والامتداد والانكماش، والازدهار والذبول، وفق سنن اللَّه التي لا تتبدل، فهو كغيره خاضع لهذه السنن الإلهية.

✍فالحديث ينبئ عن ضعف الإسلام في فترة من الفترات، ولكنه سرعان ما ينهض من عثرته، ويقوم من كبوته، ويخرج من غربته، كما فعل عند ظهوره. فقد بدأ غريبًا، ولكنه لم يستمر غريبًا، ولقد كان ضعيفًا ثم قوي، مستخفيًا ثم ظهر، محدودًا ثم انتشر، مضطهدًا ثم انتصر.

وسيعود غريبًا كما بدأ، ضعيفًا ليقوى، ثم يقوى، مطاردًا ليظهر ثم يظهر على الدين كله، مُلاحَقًا مضطهدًا لينتشر وينتشر، ثم ينتصر وينتصر.

فلا دلالة في الحديث على اليأس من المستقبل إن أَحْسَنّا فهمه. ويدل على ذلك ما جاء في بعض الروايات من وصف لهؤلاء الغرباء من أنهم يصلحون ما أفسد الناس من السُّنة، ويحيون ما أماته الناس منها.

❑ قال الإمام ابن القيم ـ رحمه اللَّه ـ:

«هذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم، ولكن أهل هذه الغربة هم أهل اللَّه حقًّا، فإنهم لم يأووا إلى غير اللَّه، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم. فإذا

انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم. فيقال لهم: «ألا تنطلقون حيث انطلق الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس، ونحن أحوج إليهم منا اليوم، وإنا ننتظر ربنا الذي كنا نعبده».

فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس، وأشد ما تكون وحشته إذا استأنسوا. فوليه الله ورسوله والذين آمنوا، وإن عاداه أكثر الناس وجفوه.

ومن هؤلاء الغرباء: مَن ذكرهم أنس في حديث عن النبي ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبرّه**»[1].

وقال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها، ولا ينافس في عزها، للناس حال وله حال. الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب..

كان المستجيبون لدعوة الإسلام نزّاعًا من القبائل، بل آحادًا منهم، تغرّبوا عن قبائلهم وعشائرهم، ودخلوا في الإسلام فكانوا هم الغرباء حقًّا حتى ظهر الإسلام، وانتشرت دعوته، ودخل الناس فيه أفواجًا، فزالت تلك الغربة عنهم، ثم أخذ في الاغتراب والترحّل، حتى عاد غريبًا كما بدأ، بل الإسلام الحق ـ الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ـ هو اليوم أشد غربة منه في أول ظهوره، وإن كانت أعلامه ورسومه الظاهرة مشهورة معروفة.

---

(١) **صحيح**: رواه البزار عن ابن مسعود بلفظ: «رب ذي طمرين لا يُؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه». وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٤٨٧). ورواه أحمد، ومسلم عن أبي هريرة بلفظ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرّه».

فالإسلام الحقيقي غريب جداً، وأهله غرباء أشد الغربة بين الناس»[١].

● قال رسول الله ﷺ:

«إن من ورائكم زمان صبر، للمتمسك فيه أجر خمسين شهيداً منكم»[٢].

* * *

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (١/ ١٩٤ ـ ٢٠٠).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير» عن ابن مسعود. وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٤٩٤)، و«صحيح الجامع» رقم (٢٢٣٤).

مبشرات من التاريخ

لم تزل صورة الرجال طيوفًا
غافيات كالحُلم في الأجفانِ
تلك أيامهم حكايا كأسطو
رةِ فخْرٍ تحدو مع الركبان

مبشرات من التاريخ

✍ إن دراسة التاريخ دراسة متأنيّة، واستخلاص العبر منه يثبِّت أفئدة المؤمنين ويعطي ويُبقي ويولّد فينا أبدًا يقظة الروح وأشواق الحياة مضمّخة.. كنفح الروض.. علوية.

* ماضي المسلمين أنقى من الزهر.. أروع من رؤيا الفجر.. أطيب من أريج السحر:

تاريخ هو النور والطيب والطهر.. وأيام واللَّه أروع من الخيال.. ما عرفت البشرية تاريخًا مثل تاريخها مع المسلمين في عزهم الغابر.

✍ كان التاريخ واقفًا لا يتزحزح، ضيقًا لا يتسع، جامدًا لا ينمو حتى جاء المسلم أخو الشمس[1].. مثلما تشرق الشمس على الدنيا، أطلّ المسلم على الدنيا فعطّرها وتزين التاريخ بهذه الأمة التي كانت أيامها من التاريخ محل العقد من الجيد.. أبهى من اللآلئ، وأرق من نسيم الفجر، وأطهر من الثلج، وأجمل من ابتسامة الفجر الوليد، وأطيب من شذا الورود..

❑ يقول حاديهم:

أنت تدري أيها الحيران عنّا ... كيف فوق الشمس أزمانًا حللنا

❑ فيجيبه الثاني:

كنا جبالاً في الجبال وربما ... سرنا على موج البحار بحارا

❑ ويردد الثالث:

عرف العالم عنهم نبأً ... أُفعمت آياته بالعَجَبِ

(١) أي: في نوره ونفعه وإشراقه مثل الشمس.

لـم يـزل فـي خـاطـري أن الـذي ... قـوّض الرومـــان بالرمـــح أبـى
وجـــوادًا قبّـــلت حافـــرَه ... لجـــةُ البحـــر تُجـــاه المغـــرب
ومـلـوك الصين تـهـدي تربهـا ... لفتـــانا في صحـــاف الذهب
أي روح من هداها انبجستْ ... هـــذه الأضـــواء مثـل الشُّهب
أي إشـــراقـة نـفس رفعـــت ... هـــذه الأمجـاد فوق الكوكب
إنهـــا قصـــة بعـث كُتـبت ... بحروفٍ من ســـنا، من لهـب
نهضـــةٌ بالديـن شادوا صرحهـا ... ثابـت الركـن، قـوي الطنَـب[1]

□ للّه درك هاشم الرفاعي من قائل:

ملكنـــا هـــذه الدنيـــا القرونـــا ... وأخضعهـا جـدود خالدونـــا
وسطّرنا صحائـف من ضياء ... فما نسي الزمـان ولا نسينـــا
ومـا فتئ الزمـان يـدور حتـى ... مضى بالمجد قوم آخرونـــا
وأصبح لا يُرى في الركب قومي ... وقد كـانوا أئمـته سنينـــا
وآلمنـــي وآلـــم كل حـــر ... سؤال الدهر أين المسلمونـــا
تُرى هـل يرجـع الماضي فإني ... أذوب لذلك الماضي حنينـــا
وهاتوا لي من الإيمـان نـــوراً ... وقـوّوا بين جنبـيّ اليـقـينـــا
أمـدّ يـدي فـأنـتـزع الـرواسـي ... وأبنِ المجـد مؤتلقًا مبينـــا[2]

* * *

(١) لهاشم الرفاعي.

(٢) من قصيدة «شباب الإسلام» ـ من ديوان هاشم الـرفاعي ص(١٩٦) . . قالها في جمعية الشبان المسلمين ٩ فبراير سنة ١٩٥٩، ونسبها بعضهم خطأً لإقبال.

*** وعلى مدار التاريخ حقيقة ناصعة: «إن الله لا يُضيِّع أهله»:**

قالتها أم إسماعيل لخليل الرحمن إبراهيم عليه السلام في جبال فاران موضع مكة الآن: آللَّه أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا.

وقال جبريل الأمين من هو عند ذي العرش مكين لأم إسماعيل: «لا تخشي الضيعة.. إن اللَّه لا يضيع أهله».

ما ضيّع اللَّه نوحًا ولا إبراهيم ولا صالحًا ولا شعيبًا ولا يونس ولا موسى ولا ركْبَ النبيين والموحدين الكرام.

ما ضيّع اللَّه إبراهيم وهو في النيران، ولا موسى وهو على ثَبَج البحر، ولا يونس وهو في بطن الحوت.

«لا تخشي الضيعة؛ إن اللَّه لا يضيع أهله» هذا إرث جبريل الأمين لأم إسماعيل، وإرث أم إسماعيل للتاريخ.

*** وحقيقة أخرى من المبشرات: «نزول النصر تُكَحَّلُ به عيون الأمة ـ أحوج ما تكون إليه:**

عندما يشتد الكرب، ويفقد الناصر والمعين.. ويعز كل سند من أسباب الأرض، وتستغيث الأمة بربها وتدعوه دعاء المضطر.. وتُعلق الآمال باللَّه وحده، وتوقن أن النصر من عنده وحده.. وتنطرح الأمة على عتبة العبودية سائلة مولاها: نسألك بعزك وذلنا، وبغناك وفقرنا، إلا نصرتنا، هذه نواصينا الكاذبة الخاطئة بين يديك.. نسألك سؤال المسكين، ونبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل.. سؤال من رغم لك أنفه،

وذلت لك رقبته، ودان لك في جميع أمره.. انصر عبادك.

وبعد ظلمة الليل ينبثق نور الفجر.. وكلما اشتد الظلام اقترب الضياء.

إنني رغم ظلام قاتل ... لأرى النور خلال السُّحُبِ
وأحس النصر يسري في دمي ... ويحييّ في الحنايا أربي
إنها الرؤيا أتت صادقة ... ليس من أضغاث حلم مجدبِ

* وهذه أمثلة من التاريخ:

١ ـ أثناء هجرة الحبيب ﷺ:

حين يشتد الكرب ويبلغ مداه بالنبي ﷺ المطارد من كل قوى الشرك، يطول سراه بالليل، ويأوي إلى الغار بالنهار بعد أن عزّ الناصر، وانقطعت أسباب الأرض للنصرة والحماية.. ويكاد الصدّيق يحبس أنفاسه وهو يرى قرب المشركين من رسول اللَّه ﷺ: «يا رسول اللَّه لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا»، فيقول النبي ﷺ: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما؟**»[1].

يرتبط قلب رسولنا ﷺ الكبير باللَّه وحده، ويرجو النصر من اللَّه وحده الذي بيده نواميس الكون، وتفيض السكينة على قلب نبينا ﷺ، ومعه الطمأنينة والثقة، فيسكن قلبه إلى اللَّه، ويستند إليه، ويخلع السكون إلى الأسباب، ويلقي أمره كله إلى اللَّه طلبًا واختيارًا، يعلم عظم رحمة ربه وتمام كفايته ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**﴾ وحسن

(١) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

ولايته، وتدبيره له، ومعيته، يرى كوى النور تتفتّح في دياجير الظلام، ويبصر الآفاق المشرقة، ويستروح أنسام الأنس والقربى، ويوقن أن اللَّه الذي يهدي السبيل، ومالك الملوك لا بد أن ينصر ويعين.

واللَّه إن كلمات الدنيا كلها لتعجز أن تصور كرب هذه اللحظات ووقعها على قلب الصديق ـ رضي اللَّه عنه ـ، وكأن وجيب قلبه وخفقه دموع تنسكب تملأ بحار الدنيا كلها خوفًا على رسول اللَّه ﷺ.. يترقب الخطر في كل التفاتة.. وكيف وقد رأى «سراقة» وهو يطاردهما.. رأى المشركون وقد وصلوا إلى باب الغار.. ولكنها المعيّة.

سلم الأمر تجدهم هم أولى بك منكا

* قال تعالى: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة: ٤٠].

كان النصر المؤزر من عند اللَّه بجنود لم يرها الناس، وكانت الهزيمة، والذل والصغار للكافرين.

وهذا مثل من الواقع والتاريخ لمن هو في حاجة بعد قول اللَّه إلى مثال ودليل.

* وفي يوم بدر:

* قال اللَّه تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

* وقال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٦].

إنما خرجوا لملاقاة الفئة التي تحرس العير، فكيف بهم وقد رأوا قريشًا قد نفرت بخيلها ورجلها، وشجعانها وفرسانها، ويقول بعض الصحابة: «ما لنا طاقة بقتال العدو».

عن عمر بن الخطاب ـ رضي اللَّه عنه ـ قال: «لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاث مئة ونيف، ونظر إلى المشركين، فإذا هم ألف وزيادة. فاستقبل النبي ﷺ القبلة، وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: « **اللَّهم أنجز لي ما وعدتني.. اللَّهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدًا**»، قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فردّاه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا نبي اللَّه، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك»[1].

* فأنزل اللَّه عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٩، ١٠].

لا تعبير أدق من التعبير القرآني، وهو يصور ضعف المسلمين قبل

(١) رواه الإمام أحمد في «مسنده»، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح (١/ ٣٠ ـ ٣١) ح(٢٠٨)، ورواه مسلم (١٧٦٣).

بدر وفي وقتها: التربص، والوجل، والترقب، والخوف، والفزع.

* قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وحالة أهل الكفر وبطرهم، يقول أبو جهل: «لا واللّه لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم ثلاثًا، ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونشرب الخمر، وتعزف القيان علينا، فلن تزال العرب تهابنا أبدًا»، ويقول أيضًا: «واللات والعزى لا نرجع، حتى نقرن محمدًا وأصحابه في الحبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذًا»[1].

* وأمر الشيطان أمر آخر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ...﴾.

* وموقف ثالث للمنافقين، والذين في قلوبهم مرض: لما رأوا قلة المسلمين وضعف عدتهم، وكثرة المشركين، قالوا مقالتهم التي يقصها اللّه علينا: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩].

✍ وأمر آخر قصّه علينا ابن عباس:

قال علي بن طلحة، عن ابن عباس قال: نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر، والمشركون بينهم وبين الماء رملة وعصة، وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم:

(١) «دلائل النبوة» للبيهقي (٣/ ٥٣).

«تزعمون أنكم أولياء اللَّه تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلّون مجنبين».

والماء في الصحراء مادة الحياة فضلاً على أن يكون أداة النصر، وما ظنك بالجيش الذي يفقد الماء في الصحراء قبل أن يواجه عدوه؟ هذه الحالة النفسية، ووسوسة الشيطان، وحالة التحرج من أداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء، (ولم يكن قد رخص لهم بعد في التيمم، فقد جاء هذا متأخرًا في غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة) وهنا تثور الهواجس والوساوس، ويقع حرج النفوس ووجل القلوب، وهنا يجيء المدد وتجيء النجدة ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

لما فزع المسلمون وهم يرون أنفسهم قلة في مواجهة خطر لم يحسبوا حسابه ولم يتخذوا له عدته، فإذا النعاس يغشاهم، ثم يصحون منه، والسكينة تغمر نفوسهم، والطمأنينة تفيض على قلوبهم.

ويأتي الماء مددًا آخر من أمداد اللَّه للعصبة المسلمة قبيل المعركة، ويتم المدد الروحي بالمدد المادي، وتسكن القلوب بوجود الماء، وتطمئن الأرواح بالطهارة.

❑ يقول ابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ: «فأمطر اللَّه عليهم مطرًا شديدًا، فشرب المسلمون وتطهروا، وأذهب اللَّه عنهم رجز الشيطان، وثبت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم، وأمدّ اللَّه نبيه ﷺ بألف من الملائكة، فكان جبريل في

خمسمائة مجنبة، وميكائيل في خمسمائة مجنبة».

المدد الذي لا يتخيله البشر..

● عن معاذ بن رفاعة الزرقي، عن أبيه ـ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ـ فقال: «**ما تعدّون أهل بدر فيكم؟**» قال: «**من أفضل المسلمين**» ـ أو كلمة نحوها ـ قال: «**وكذلك من شهد بدراً من الملائكة**»[1].

* معية اللّه سبحانه: ﴿ **فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾.

تدبير فوق تدبير البشر، وقوة قاهرة فوق قوة البشر، إن لهذا الدين ربًّا يتولى أصحابة متى أخلصوا له وتوكلوا عليه واستغاثوا به وعلموا أن النصر منه.

لقد قالها المشركون لحليفهم: «فلعمري لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم، ولئن كنا إنما نقاتل اللّه ـ كما يزعم محمد ـ فما لأحد باللّه من طاقة».

إنها ليست فلتة عابرة، ولا مصادفة عارضة أن ينصر اللّه العصبة المسلمة ويثبتها متى أيقنت أن النصر منه، فاستغاثت به وفوضت أمرها إليه وتوكلت عليه وحده واستقامت على الطريق، واطمأنت إلى ربها، ووقف أعداء اللّه موقف المشاقة له ولرسوله، فيكون الذل والصغار لهم، ويوهن اللّه كيدهم.

---

(١) رواه البخاري في «صحيحه»، باب شهود الملائكة بدراً.

كانت بدر ملحمة لا غنيمة، معركة بين الحق والباطل ليحق اللَّه الحق ويبطل الباطل، ويزهقه، ويذل كبرياء رؤوس الكفر، ويخضّد شوكتهم، وتعلو راية الإسلام، ومضت بدر في التاريخ كله قصة عقيدة، وفرقانًا بين الحق والباطل، قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح، المزودين بكل زاد، وكفتهم راجحة رجحانًا ظاهرًا، والحق في قلة من العدد، وضعف في الزاد والراحلة.

تمضي بدر مثلاً في التاريخ، وكتابًا مفتوحًا تقرؤه الأجيال في كل زمان ومكان، وآية من آيات اللَّه، وسنَّة من سننه الجارية في خلقه ما دامت السماوات والأرض.

* غزوة الأحزاب مثل ثالث لهذه الحقيقة:

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ [الاحزاب: ٩ ـ ١١].

خرجت قريش في عشرة آلاف من أحابيشهم، ومن تبعهم من بني كنانة، وأهل تهامة، وأقبلت غطفان، ومن تبعهم من أهل نجد، وقد حال الخندق بينهم وبين المدينة، وأمر النبي ﷺ بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام «الحصون» ونقضت بنو قريظة عهدها مع رسول اللَّه ﷺ. وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

قال محمد بن مسلمة وغيره: كان ليلنا بالخندق نهارًا، وكان المشركون يتناوبون، فيغدوا أبو سفيان بن حرب في أصحابه يومًا، ويغدو خالد بن الوليد يومًا، ويغدو عمرو بن العاص يومًا، ويغدو هبيرة بن أبي وهب يومًا، ويغدو عكرمة بن أبي جهل يومًا، ويغدو ضرار بن الخطاب يومًا، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفًا شديدًا.

قالت أم سلمة ـ رضي اللَّه عنها ـ: شهدت مع رسول اللَّه ﷺ مشاهد فيها قتال وخوف: المريسيع، وخيبر، وكنا بالحديبية، وفي الفتح، وحنين، لم يكن من ذلك أتعب لرسول اللَّه ﷺ ولا أخوف عندنا من الخندق، وذلك أن المسلمين كانوا في مثل الحرجة، وأن قريظة لا نأمنها على الذراري، فالمدينة تُحرس حتى الصباح، نسمع فيها تكبير المسلمين حتى يصبحوا خوفًا، حتى ردّهم اللَّه بغيظهم لم ينالوا خيرًا.

وانظر إلى كرب الموقف يصوره لنا الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان ـ رضي اللَّه عنه ـ عن محمد بن كعب القرظي قال:

«قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد اللَّه، أرأيتم رسول اللَّه ﷺ وصحبتموه؟ قال: نعم يا بن أخي. قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: واللَّه، لقد كنا نجهد. فقال: واللَّه، لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا. قال: فقال حذيفة: يا بن أخي، واللَّه لقد رأيتنا مع رسول اللَّه ﷺ بالخندق، وصلى رسول اللَّه ﷺ هويًّا من الليل؛ ثم التفت إلينا فقال: «**مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع، يشرط له رسول اللَّه الرجعة، أسأل اللَّه تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟**»، فما قام منا رجل من شدة الخوف،

وشدة الجزع، وشدة البرد».

❑ وعند الحاكم:

«ثم كان منا ما كان يوم الأحزاب في ليلة باردة مطيرة، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحًا في أصوات ريحها مثل الصواعق، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه».

وفي رواية: «فقال النبي ﷺ: **«مَن رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم أضمن له رجوعه سالمًا؟»**، قال: فواللَّه ما قام منا أحد ورسول اللَّه أحب إليهم من أعينهم. فقال رسول اللَّه ﷺ: **«مَنْ رجل ينظر ما فعل القوم ثم يرجع ويضمن له الرجعة؟»** فقال: **«أسأل اللَّه أن يكون رفيقي في الجنة»**، فما قام رجل من القوم من شدة الخوف، وشدة الجوع وشدة البرد»[1].

✍ أي كرب شديد يمنع الصحابة ورسول اللَّه ﷺ أحب إليهم من الدنيا وما فيها وأحب إليهم من أنفسهم ـ فلا يقومون بتنفيذ أمره لأول وهلة، وهو يضمن لهم الرجوع والرفقة للنبي ﷺ في الجنة؟.

✍ وأي كرب شديد يجعل الرسول والصحابة لا يصلون العصر حتى يقول النبي ﷺ: **«شغلنا المشركون عن صلاة العصر، ملأ اللَّه أجوافهم وقلوبهم نارًا»**؟.

✍ ونجم النفاق، ووجد المنافقون في الكرب المزلزل، والشدة الآخذة بالخناق فرصة للتوهين، والتخذيل، وبث الشك والريبة في وعد اللَّه

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٩٢)، ومسلم (١٧٨٨)، والحاكم (٣/ ٣١)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل».

ووعد رسوله؛ حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط».

هول وكرب وشدة وضيق.. ومعه صورة وضيئة في وسط الظلام، مطمئنة في وسط الزلزال، واثقة باللَّه، راضية بقضاء اللَّه، مستيقنة نصر اللَّه، مع كل هذا الخوف والكرب.

إلى جانب الزلزلة وزوغان الأبصار، وكرب الأنفاس.. كان إلى جانب هذا كله الصلة التي لا تنقطع باللَّه، والإدراك الذي لا يضل عن سنن اللَّه، والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن، وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها، ومن ثم اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سببًا في انتظار النصر ذلك أنهم صدّقوا قول اللَّه سبحانه من قبل: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ [البقرة: ٢١٤]، ومن ثمّ قالوا: ﴿**هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا**﴾ [الاحزاب: ٢٢] هذا الهول، وهذا الكرب، وهذه الزلزلة، وهذا الضيق. وُعِدنا عليه النصر.. فلا بد أن يأتي النصر. لقد كانوا مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى اللَّه وتجدّد فيهم الأمل، وكانوا بهذا نموذجًا فريدًا في البشرية لم يعرف له نظير في تاريخ العصور.

سبحان اللَّه.. حين تتخذ قمم البشرية من أصحاب الرسول ﷺ الزلزال بشيراً بالنصر فثبتوا واطمأنوا.

أولئك مَن سطّروا للعلا ... أجل الصفات وأغلى السِّيَرْ
رسول أبيٌّ كريم الطباع ... وأصحابه حوله كالدرر
تنام المعالي على طرفه ... وتصحو على صوته في السحر

❑ أين هم وأين زمانهم؟:

أين الألى رفعوا ذرا ... ك فطاولتْ أفق السحابِ
قد كان طائر أنسها ... يشدو ويصدحُ في الروابي
والحق منتشر الظلا ... ل على السهول على الشعاب
وقوافل الإيمان تطوى ... دونها بُسُط الرِّحابِ

ويكون النصر العاقبة التي تُصدّق ظن المؤمنين بربهم، وضلال المنافقين والمرجفين.

وانتهت المعركة إلى نهايتها، وزمامها في يد اللَّه، تقريراً للحقيقة وتثبيتًا لها في القلوب.

* قال تعالى: ﴿ **وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا** ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ونصر اللَّه المؤمنين بالريح. ما اطمأنت للأحزاب قدر، وما قامت لهم نار، وما استمسك لهم بناء، وهلك الكراع والخف[1].

ولم تدر الدائرة على قريش وغطفان وحدهم، بل كذلك على يهود بني قريظة حلفاء المشركين.

* قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ**

(١) يعني: الخيل والجمال.